مارتن باج

@ketab_n
5.5.2015

قد تكون قصّة حب

@ketab_n

المركز الثقافي العربي

مارتن باج

قد تكون قصّة حب

رواية

ترجمة: حسين عمر

المركز الثقافي العربي

Twitter: @ketab_n

مارتن باج

قد تكون قصّة حب

Twitter: @ketab_n

العنوان الأصلي للكتاب:

Martin Page

Peut-être une histoire d'amour

© Éditions de l'Olivier, 2008

الكتاب

قد تكون قصّة حب

تأليف

مارتن باج

ترجمة

حسين عمر

الطبعة

الأولى، 2014

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9953-68-728-5

جميع الحقوق محفوظة

© المركز الثقافي العربي

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651

فاكس: 212 522 305726+

Email: markaz.casablanca@gmail.com

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 01 750507 ـ 01 352826

فاكس: 961 1 343701+

Email: cca_casa_bey@yahoo.com

Twitter: @ketab_n

كان كعبا حذاء فيرجيل ينقران على الطريق المبلّل وهو يخرج من مبنى وكالة سفينغالي للدعاية والإعلان في وقتٍ متأخّرٍ عمّا اعتاد عليه؛ ذلك لحظة غروب الشمس حينما تأكّد من تعطّل الساعة المعلّقة فوق الباب.

إن مكاتب وكالة الإعلانات التي يعمل فيها فيرجيل تتوسّط متحف اللوفر ومجلس الدولة ومبنى المسرح الفرنسي الحكومي. كانت محطّة المترو المكسوة بالخرز الملوّن تُبهج فيرجيل كما لو أنّها عمارة جميلة تُقام فيها حفلات عيد الأمّ. مع ذلك لم يكن فيرجيل سعيداً ومبتهجاً في علاقته بذلك الحيّ؛ إذ كانا يتجاوران وهما على أهبة الاستعداد ويدرك كلّ منهما بأنّ الأمر قد ينتهي نهاية سيئة. لم يكن الفتى يحبّ إلا جزيرتين صغيرتين من تلك البقعة الزاهية من الدائرة الأولى في باريس: مكتبة ديلامان ومقهى جاك نيكو، آخر مقمرة أفلتت من الزبائن الأنيقين الدائمين.

صعد إلى الحافلة وتحقّق من صلاحية تذكرته. كان قد توقّف عن استخدام المترو منذ ستة أشهر بعد أن أنهكه الإحساس المستمر بالاختناق ونوبات الذعر العرضية.

Twitter: @ketab_n

إنّ مسار الجسد يرافق مسار الروح. كان فيرجيل يغادر دوام عمله تدريجياً. لم يكن يكتفي بأن يخرج من مكتبه ويستقلّ المصعد ويجتاز أبواب العمارة، إنّما كان بحاجةٍ إلى عملية انتقالية تدريجية. كان الجري بين حركة السير وحركة عجلات الحافلة وحركة عيونه على مشهد المشاة والسيارات والدراجات الهوائية يريح فيرجيل من عمله ومن زملائه. كلّما اقترب من منزله أكثر انسجم مع ذاته أكثر. لم يكن فيرجيل دائماً متصالحاً مع نفسه ولكنّ التعايش بين ما كان يعتقد أنّه عليه وبين ما كان يرغب في أن يكون عليه وما هو عليه فعلاً كان يسير دون صراعات مع ذاته.

وقفت الحافلة أمام محطة الشمال بعد أن كادت أن تصدم متسكعاً. لم تكن آرميل تشغل طاولتها المعتادة على رصيف المحطة الأخيرة للحافلات. أحبّ فيرجيل لو أنّه رآها، وعلى شفتيها أحمر الشفاه وفي يدها كتاب، رغب في أن ينضمّ إليها بعد الغداء لاحتساء كأسٍ من الخمر.

ألقى التحية على مومستين أمام عمارته. ابتسمتا له ولوّحتا بأيديهما. كان صندوق بريده فارغاً. صعد الدرج مسرعاً حتى بلغ الطابق الثالث، فتح باب شقّته ورمى المفاتيح في سلّة الفاكهة بين الموز والتفاح.

ومض الزرّ الأحمر لجهاز هاتفه المسجّل. كان فيرجيل يهوى تلقّي الرسائل الهاتفية المسجّلة؛ سواءً كانت من أصدقاء أو من بائعي المطابخ المجهّزة، فهي تذكّره بأنّه يعيش حياته وسط المجتمع. ولكن قبل كلّ شيء، ذهب ليعدّ شيئاً من الطعام لتناوله. فتّش

Twitter: @ketab_n

الثلاجة فوجد فيها بيضاً وعلبة مفتوحة من الطماطم المقشّرة والكثير من قوارير اللبن الرائب. فقس بيضتين في مقلاة وغطّاها وأخيراً، ضغط على زرّ قراءة رسائل الهاتف المسجّلة.

قال صوتٌ أنثوي:

- فيرجيل.

اقترب من مكبّر الصوت ليستمتع على نحوٍ أفضل بالصوت الرخيم الفاتن. تصوّر فيرجيل أنّ للربّ صوتُ أنثى.

استمرّت الرسالة:

- أنا كلارا. أنا آسفة، ولكنّني أفضّل أن نتوقّف هنا. سوف أهجرك يا فيرجيل.

أعاد الاستماع إلى الرسالة المسجّلة لخمس مرات. كان البيض يحترق في المقلاة. بعد أن غسل وجهه بالماء البارد، تمعّن بوجهه في مرآة الصيدلية المنزلية. أغمض عينيه ثمّ فتحهما بعد بضع ثوانٍ. تناول قرصاً مضاداً للقلق. عاد إلى المطبخ وأطفأ الغاز. كان دخانٌ كثيفٌ يتصاعد من البيضتين اللتين بدتا كقطعتي فحم.

هناك القليل من التجارب الأليمة التي تُضاهي الانفصال. يُعاش الانفصال كاعتداءٍ مدبّر بدقّة متناهية، لأنّ القنبلة تكون قد وُضِعت في قلبنا: يستحيل الإفلات من عنف الانفجار. ولكن في الحالة الراهنة، كان فيرجيل يُهجَر من قبل امرأة لم يكن يعرفها ومن البديهي أنه لم يكن قد أقام علاقة معها. كان يخضع مباشرة لصدمة اكتشافه بأنّه ضحية رفضٍ غراميّ في اللحظة نفسها التي يُدرك فيها بأنّ الموضوع ليس حقيقياً.

Twitter: @ketab_n

لم تكن الأرض أبداً كوكباً مستقراً جداً في نظر فيرجيل. كانت لديه القليل من اليقينيات، ولذلك كان يتمسّك بها. كان عازباً. هذا مؤكّد. لديه ثلاجة أعزب وأيضاً عادات أعزب. كانت عزوبيته يقيناً أكبر من الجاذبية.

ركّز اهتمامه على الأشياء الملموسة في الغرفة: مجموعته من الأسطوانات الغنائية، الملصق الأحمر والأصفر لسيرك والديه فوق الأريكة ذات المساند المترهلة، علبة منقوع الهندباء، فاتورة هاتف مثبّتة على الثلاجة بمغناطيسٍ على هيئة فيلٍ أفريقي (كانت أذناه الكبيرتين المثلّثتين منفرجة كجناحي فراشة، وخرطومه مرفوعاً إلى الأعلى من بين أنيابه). فصل الهاتف المجيب وخرج من الشقّة.

سار مستغرقاً في التفكير ونزل إلى جادة ماجانتا. كان جسده يعمل؛ حيث لا أضرار في المفاصل ولا في العضلات والدم يجري في عروقه. بالمقابل، كان دماغه على حافّة الغليان.

Twitter: @ketab_n

ضمّ الهاتف المجيب الضخم والبارز التقاطيع إلى صدره بشدّة خلال سيره حتى عبارة بتيزيكوريه حيث توجد عيادة طبيبته النفسانية.

القاسم المشترك الوحيد بين الحيّ والحيّ الذي يقع فيه مكتب فيرجيل هو العدد الكبير من العبارات التي تتيح الإفلات من الطريق المزدحم. كان سكان عبّارة بتيزيكوريه قد وضعوا مقاعد وطاولة بيضاء في الحديقة وزوجان متقاعدان يعتنيان بأصص الزهور ودراجة طفلٍ تسير فيها.

إن عيادة الدكتورة زيتكين التي تشبه مغارةً تقبع في الطابق الثالث من العمارة الواقعة في زاوية الفناء. كانت العوارض العمودية والأفقية والعرضانية على سطح الواجهة تشكّل ما يشبه شبكة من الخيوط السميكة والداكنة؛ وفي القمّة، كانت هناك مزاريب لتمنع مياه المطر من تبليل الخشب والجبس.

في صالة الانتظار، كانت امرأة شابّة (ترتدي بنطالاً من الكتّان وسترة أسودين، مشبوكة الشعر)، وهي آخر المراجِعات، تقلّب صفحات مجلّة. بدا أنّ رؤيتها لفيرجيل وهو يضمّ جهاز هاتفٍ إلى صدره قد أقلقها؛ فاستغرقت في قراءة مجلّتها. انفتح باب العيادة وظهرت يد الدكتورة زيتكين لتدعو المرأة الشابّة إلى الدخول.

Twitter: @ketab_n

ردّد فيرجيل في نفسه آخر شعار سمعه في الوكالة. أراحته ملاحظات ذاك الإعلان الذي يروّج لفائدة التفاح المطبوخ بالسكّر للصحّة. كان فيرجيل يُراجع عادةً قلاقله وهمومه اللحظية فيرتّب المواضيع التي ينبغي الحديث عنها ويستخدم بلاغة ناجعة ويعدّ ردوداً مدعمة بالبراهين على الاعتراضات المحتَمَلة للدكتورة زيتكين. ولكن في هذه المرّة، فضّل الامتناع عن التفكير العميق. بعد عشرين دقيقة، خرجت المرأة الشابّة.

الدكتورة زيتكين امرأة تبلغ ما يقارب خمسين عاماً، شعرها كستنائيّ ونظارتها خضراء اللون؛ ترتدي سترة بنفسجية من الصوف الناعم فوق قميصٍ سكّري اللون وقلادة من اللؤلؤ وخاتماً مرصّعاً باليشب والكهرمان. كان جوّ العيادة عابقاً برائحة الشاي الصيني الأسود. هذا الشاي برأي فيرجيل قويّاً جداً، لكنّه كان يربطه بجلساته إلى درجة أنّه لمجرّد أن يشمّ رائحته يشعر براحة مباشرة.

- صباح الخير، دكتورة.

- ليس لديك موعد اليوم.

دعت فيرجيل للدخول بحركةٍ من يدها. جلسا إلى طرفي طاولة المكتب. كان البخار يتصاعد من إبريق شاي من الفونت الأحمر على طبقٍ قرب المكتبة. كان دفتر الملاحظات الكبير الأسود اللون المفتوح أمام الدكتورة يشبه طائراً محلّقاً. كانت صفحة المواعيد اليومية مليئة بالأسماء ولم يكن اسم فيرجيل مدوّناً فيها. لم يكن الاثنين يوم موعده.

تجاوز فيرجيل مرحلة انتظار دوره وبالتالي لم يكن غيوراً من

Twitter: @ketab_n

الزبائن الآخرين للدكتورة زيتكين. على العكس، اعتقد أنّ العدد الكبير لزبائنها يتيح له التأكّد بأنّه أكثر أهمية من الحشد التافه للمصابين بالعُصاب. لا يمكن للعلاقة التي يقيمها المرء مع طبيبٍ نفساني أن تنحرف عن مسارها؛ فإذا كان مهنيّاً متميّزاً، سوف لن يقبل الدعوات إلى العروض التي ترسلونها إليه. سوف لن يصبح لا صديقاً ولا عدوّاً. بالمعنى الحصري، لا يكون رحيماً. «أعطني نقطة ارتكاز، وسأرفع العالم»، يقول أرخميدس متحدياً أصدقاءه في سرقوسة. والحالة هذه، بالنسبة إلى فيرجيل، كان المقصود هو التعالي على عُصابييه؛ طبيبته النفسانية، عنصر الاستقرار الوحيد لعالمه، وهي تمثّل دور نقطة الارتكاز.

قال فيرجيل:

- تعرّضتُ للتو لحادث.

- آه. أيّ حادث؟

- حادث اصطدامٍ مع الواقع.

الواقع هو أكبر مسبّب للجراح والخسائر والآلام وهو يفوق في ذلك الاعتداءات والأمراض وحوادث المرور. وضع فيرجيل جهاز الهاتف على الطاولة. طرفت الدكتورة زيتكين بعينيها وتوقّفت عن العمل. لم يراع فيرجيل الأصول. كان عليه أن يستلقي على سرير الكشف لا أن يجلس. لا أن يُفسِد جغرافية مكتبها. كان فيرجيل يعلم أن الدكتورة زيتكين ستعدّ تصرفه عَرَضاً لحالته. لم يكن بوسعها أن تعاتبه على ذلك، لأنّها هي بنفسها لم تكن تكفّ عن القول بأنّ أيّ فعل إنساني (التنفّس على سبيل المثال) هو عَرَض.

Twitter: @ketab_n

قالت:

- آه.

كالعادة، لم يرتسم على وجهها أي تعبير. كان فيرجيل قد نجح في اكتشاف الفرادة في حيادها السهل. فهناك الحياد الفضولي، والحياد البارد والحياد الباعث على الاطمئنان. كما كانت للدكتورة زيتكين موهبة كبيرة في قول «آه». كانت تلك الكلمة أساس مفرداتها. يحدث أن تستخدم كلمات أخرى، مثل «حسناً» «كيف هذا؟» «نعم»، «نسيت أن تدفع لي». تعيش هذه المرأة وسط المجتمع وتبرع في مجالها باستخدام حوالي عشر عبارات استخداماً شحيحاً.

بعد أن سحب منشب التيار الكهربائي من مصباح طاولة المكتب ليوصل به جهاز الهاتف، ضغط فيرجيل على زرّ التشغيل. بدأ الجهاز بتلاوة الرسالة.

قالت الطبيبة النفسانية:

- إذاً، هذه المرأة هجرتك.

- ليس بالضبط.

- هي تقول ذلك بوضوحٍ شديد. أنت لا تتقبّل ذلك.

اعتقدت الدكتورة زيتكين بأنها قد وضعت إصبعها على المشكلة. ففي نهاية المطاف يعرف كلّ منهما حالة الحياة العاطفية لفيرجيل: فالاسترخاء أمرٌ مستساغٌ بالنسبة إليه. كان ذلك كظاهرة المدّ والجزر أو هجرة الإوزّ البرّي من طبيعة الأشياء. كاد فيرجيل أن يسعَد بمعارضتها ولمرّة واحدة عن حقّ.

- لم نكن معاً. لا بل لا أعرفها.

Twitter: @ketab_n

أمسكت الدكتورة زيتكين بنظارتها وأخذت تنظّف عدستيها. أثارت الحالة اهتمامها. بعد يوم عملٍ أمضته في الاستماع إلى العصابيين التقليديين، لم تمانع في التعاطي مع القليل من الفانتازيا. وضعت نظارتها وباعدت بين ذراعيها كإشارة على الاستفهام.

- وكيف تفسّر هذا؟

- لا أريد أن أفسّر، أريد أن أفهم.

- حقّاً؟

كان فيرجيل في جوٍّ يُشعره بالأمان. حيث شغلت الأعمال العظيمة في التحليل النفسي رفوف المكتبة، وكانت صورة لفرويد وهو يشير بإصبعه من نافذة القطار الواصل إلى باريس في عام 1938 معلّقة خلف طاولة المكتب؛ وصورة الصفحة الأولى من مخطوطة دراسته حول غرافيدا جانسن مؤطرة على الجدار؛ وعلى طاولة المكتب تتراكم مجلات تخصصية باللغة الفرنسية والإسبانية. كان يلذّ لفيرجيل الاعتقاد بأنّ أرواحاً إحيائية مضمرة في رفات القديسين تُضفي القداسة على المكان وأنّ بوسعه أن يرفع غطاء دماغه دون خشية.

قال:

- لا يمكن لهذا أن يكون خطأً. لقد نطقت اسمي.

لم يكن لفيرجيل اسماً شائعاً، كان قد حظي بفرصة أن يتأكّد من ذلك في باحة الاستراحة.

تابع قائلاً:

- قد تكون مزحةً.

- ولماذا تريد امرأة لا تعرفها أن تمزح معك؟

Twitter: @ketab_n

رنّ هاتف فيرجيل النقّال. لانشغاله الشديد بالمشكلة الراهنة نسي أن يَفصله. وفي الحالة التي كان قد بلغها من عدم احترامه لأصول التعامل في عيادة للتحليل النفسي، ردّ على المكالمة. كانت صديقته القديمة فوستين على الخطّ.

– فوستين، لا أستطيع التحدّث إليك، أنا عند طبيبتي النفسانية. ماذا؟ سأتصل بك لاحقاً.

أغلق هاتفه. لم تكن الأمور على ما يُرام. حدّق في صورة فرويد. تبلّلت يداه وانسدّت أذناه وأحسّ بطعم الحديد في فمه. شعر بضيقٍ في التنفّس. أحسّ بأنّه في حالة كما لو أنّه تعرّض لحادث، في حالة من كان ضحيّة تصادمٍ مع قوّة غير مرئية.

– هل سبق أن حدّثتكِ عن فوستين؟

– إنّها واحدة من النساء اللواتي وقعت في حبّهنّ وهي صديقتك الآن.

كان فيرجيل يجهل سبب ذلك، ولكنّه لكي يصبح صديقاً لامرأة كان من الضروري أن يقع في حبّها أوّلاً.

– لقد علِمت بأنّ كلارا قد هجرتني. عرضت عليّ الذهاب لتناول العشاء لتواسيني.

– فكّر: هل أنت متأكّد بأنك لم تلتقِ بكلارا من قبل؟

كانت الدكتورة تراقب فيرجيل، بعينين نصف مغمضتين. هل زال الحدّ الرفيع بين الواقع والخيال؟ ركّز فيرجيل على تمرينٍ للتنفّس تعلّمه من دروسه في رياضة اليوغا.

لاحت له ذكرى. كان ذلك منذ شهر، أثناء سهرة في منزل

Twitter: @ketab_n

مود. في نهاية كلّ أسبوع، كانت مود تستحوذ على الشقّة الفسيحة لوالديها لتنظّم حفلات. كانت سمتها الرئيسة صخبها الذي يمنع سماع التفاهات والبذاءات التي كان كثير من الضيوف يتبادلونها. كان فيرجيل ثملاً. أمسكت مود بكمّ قميصه وأخذت تعرّفه بفتاة. تراءت له صديقته تنطق باسمها ملوّحةً بكوب الكوكتيل الكبير: كلارا. ولكن فيرجيل لم يتذكّر لا وجهها ولا حديثهما. على أيّ حال، لم يكن قد حدث أيّ شيء بينهما. روى فيرجيل الحكاية للدكتورة زيتكين.

- ربّما تكون قد عانقتها وهي أساءت تفسير تصرفك.

- أنا عادة أصافح النساء. خاصة حينما أكون ثملاً. وإلّا تتمادى شفتاي وتقبّل كلّ مكانٍ من وجههنّ. أيمكن أن تكون لي قصّة حبّ معها دون أن أتقصّد ذلك؟

- أنت لستَ مجنوناً.

هزّ هذا التأكيد فيرجيل. فجأة ودون أيّ تمهيد، انتشلته طبيبته النفسانية، المرأة التي كان يراها ثلاث مرّات أسبوعياً منذ خمس سنوات، من أحد هواجسه.

- ألا تقولين هذا لتطميني؟

- أنت تدفع لي لموضوعيتي.

رنّ هاتف فيرجيل من جديد. كانت ناديا على الخطّ.

جرى حديثٌ سريع: كانت فوستين قد أخبرتها بالانفصال. أشارت رنّة إلى اتصال آخر، فوضع فيرجيل ناديا على وضعية الانتظار. كانت مرّة أخرى فوستين على الخطّ. وعد صديقتيه بأنّ

Twitter: @ketab_n

يتّصل بهما لاحقاً. كانت الدكتورة زيتكين تدوّن ملاحظات في دفترها.

بعد أن أغلق هاتفه، قال فيرجيل:

- لا أشعر بأنني في حالة جيدة.

رغب في أن يتقيّأ وأن يُغمى عليه في آنٍ واحد. كان هناك أمرٌ ما لا يسير سيراً حسناً ولم يكن يعلم ما هو. كان لديه الحدس بأنّه أمرٌ خطير وأنّ حياته قد تتغيّر جذرياً بسببه.

- اذهب لكي ترتاح.

- سوف لن يحلّ ذلك شيئاً.

- لا تنحلّ كلّ الأمور.

لم يكن هناك طارئ. ظنّت الدكتورة زيتكين أنّ الزمن كفيلٌ بتوضيح الأمور. كان فيرجيل أيضاً ينتظر تتمّة الحكاية، ولكنّه لم يكن هو من سيشاهد أحداثها. نقرت الطبيبة النفسانية بطرف قلمها على حافة طاولة المكتب.

قال فيرجيل:

- لا أعلم إن كان لهذا علاقة بالموضوع ولكنني أحسّ مؤخراً بالدوخة والدوار. أشعر بأنني مصابٌ بالغثيان.

كان بحاجة إلى أن يجد معنى لما أصابه. كان المرض دائماً ملاذه المفضّل حينما يشعر بأنّ صديقاته يهجرنه.

- هل تتقصّد فعلاً أن تكون مريضاً؟

- أحاول أن أفهم ما يحدث.

- أتصدق؟

Twitter: @ketab_n

شعر فيرجيل بأنّ دمه قد تجمّد في عروقه. لمعت عيناه.

قال وهو يبتلع ريقه بصعوبة:

- من باب الاحتياط، يمكنك أن تجري لي بعض الفحوصات الطبية.

- إذا كان هذا ما ترغب به، فليكن.

دوّنت الدكتورة ما يكفي من الكلمات على وصفة طبية كي لا يشبه ذلك بعض الفحوصات الاعتيادية. من بين مواهبه، كان فيرجيل يمتلك القدرة النادرة على قراءة كلمة «سكانر» بطريقة معكوسة.

قال فيرجيل:

- سكانر؟

- لا تقلق.

لا شكّ أنّ جملة «لا تقلق» هي الأكثر إثارة للقلق في اللغة الفرنسية. ألقى فيرجيل نظرة عبر النافذة. كانت عبّارة بتيزيكوريه غارقة في الظلام الدامس. لم يرغب في المغادرة، بل أراد البقاء في هذه الغرفة والتدثّر بغطاء الأريكة. فتحت الدكتورة زيتكين الباب. خرج فيرجيل وقد ضمّ ذراعيه إلى جذعه. سلك الشوارع الأكثر إنارة والأكثر ازدحاماً؛ فقد مرّ من أمام مطاعم الوجبات الخفيفة في شارع فوبورغ-سان-دوني ليستمتع بأضواء المتاجر وروائح الشواء المنبعثة من محلاّت بائعي الكباب. كان أدنى مظهر من مظاهر الحياة البشرية يُعتبَر بالنسبة إليه شيئاً نفيساً.

Twitter: @ketab_n

احتاج فيرجيل إلى سلسلة من المكالمات الهاتفية مع أصدقائه في الوسط الطبي لكي يحصل على موعدٍ في عيادة للتصوير الإشعاعي في اليوم التالي.

لم تُثر النتيجة أيّ شكّ. كانت امرأة قد هجرته دون أن يكون لديه أيّ ذكرى عن علاقتهما، إذاً كان يعاني من مرضٍ عصبيّ. مركز الذاكرة مصابٌ؛ فقد اختفت جوانب كاملة من حياته تحت تأثير تفاقم المرض. حينما فكّر مليّاً، تراءت له النتيجة الهدّامة لهذا المرض.

طبعاً، كان الطبّ قد حقّق تقدّماً هامّاً في السنوات الأخيرة. ولكنّه لم يكن من النوع الذي يتعلّل بالأوهام.

قال فيرجيل:

- سوف أموت.

كرّر عدّة مرات هذه الجملة بصوتٍ عالٍ. كانت نهايته تقترب. وكان متأكداً من ذلك. سرت فيه قشعريرة من قمّة رأسه حتى أخمص قدميه. كان يخاف من الموت، لا لأنّه لن يعود موجوداً - فقد اعتاد على الشعور بعدم الحضور في العالم -، ولكن لأنّ الموت يعني أن

Twitter: @ketab_n

يصبح شخصاً طبيعياً. جثّة لا شخصية لها. لم يكن ذلك هو الميل الفطري لحديث فيرجيل الذي لا يحتمل الموت، وإنّما هي روحه المتناقضة.

خفّف من إشعاع النور وجلس على الأريكة. تحسّست أصابعه خشونة النسيج وعيوبه والثقب الذي أحدثته جمرة سيجارة. شرهاً للأحاسيس وللمعلومات، جسّ الأشياء التي كانت تحيط به مثل هيلين كيلر وهي تتحسّس كتاباً مكتوباً بطريقة البريل. عاش سبع سنوات في هذه الشقّة وتماهى معها مثلما تمنح القدم شكلها للحذاء. هل يمكننا أن نقول الأمر نفسه بالنسبة إلى العالم؟ عند موتنا، هل ستحافظ مادة العالم على بصمتنا؟ هل ستحفظ الذرّات حدود أفكارنا؟ فكّر فيرجيل أنّ الشقّة، على الأقلّ، سوف تبقى وسوف يستمرّ أصدقاؤه في العيش، ويستخدم آخرون أسطواناته الموسيقية.

طلب من طريق موقع بون مارشيه للإنترنت، وجبة عشاء باذخة وثلاث قوارير من موتون-روتشيلد. سُلّمَت له السلّة بعد نصف ساعة. حيّدت نوعية الوجبة التأملات الكئيبة. استمع إلى أسطواناته المفضّلة. تعاقب فنانون من العالم برمّته ومن كلّ العصور في الصالون في حفلة وداعٍ ختامية.

جال، وفي يده كأسٌ من النبيذ، في غرفتيه مع كلّ بوصةٍ وترك بصماته عليها. سوف تتحجّر النقوش النافرة والأقواس والحلقات والدوّامات المرسومة بأنامله. لن يزيل أيّ تنظيفٍ ولا أيّ ترميمٍ العلامات الدّالة على وجوده. ستبقى هذه الآثار محفورة في عتمة الصِغَر غير المحدود، بانتظار أن يكتشفها علماء الآثار. كان قد قرأ

Twitter: @ketab_n

مقالة عن خزّافي الفخّار القديم الذين كانوا، وهم يشكّلون الطين على دواليبهم، ينقشون دون علم منهم الكلمات التي ينطقون بها أثناء العمل كما لو أنّها تُسجّل على أسطوانة. كانت شقّته مغطّاة بملايين الأسطوانات المضغوطة المسجّلة بمونولوجاته وأحاديثه.

رغم كلّ ما بذله من جهود، لم يستطع فيرجيل أن يتذكّر كلارا. استعاد شريط حياته منذ الحفلة، قبل شهر: خواتيم سهرته مع آرميل في تيرمينوس نورد، المكالمات الهاتفية لوالديه، جارته التي أعارته واقياً ذكرياً، عمله في الوكالة، مشاويره، الأفلام التي شاهدها، الكتب التي قرأها. أعاد تمثيل معظم أيامه على ورقة. ولكن كلارا لم تظهر في أيّ مكان. كان المرض قد أقصاها من ذاكرته.

مع الزجاجة الثانية من النبيذ، وقد غالبه السُّكر، تخيّل الدروب التي سلكتها هذه المرأة الغامضة. تراءت له وقد وضعت يدها على حرف باب المطبخ وفتحت الثلاجة، وقد أخذت كأساً من لبن الصويا، وخرجت من الحمّام وعقدت منشفة فوق نهديها. فتّش بين بقايا ماضيه؛ بحث عنها تحت السرير، أفرغ أدراج الخزانة، نقّب في خزانة الصيدلية المنزلية، لكنّه لم يعثر على أيّ قرطٍ، أيّ جوربٍ، أيّ خصلة شعر، أيّ ماسورة للكريم المرطّب. بسبب الضجيج المنبعث من الشقق المجاورة، كان يقضي بعض الوقت قبل دعوة فتاة إلى بيته. على الأرجح، لم تكن كلارا قد جاءت إلى بيته أبداً.

كان فيرجيل قد ترك حبّه الأخير يفلت منه، ولذلك سيموت وحيداً. وباكراً جداً. لا بدّ أنّه أراد أن يشيخ قبل أن يموت، أن يشيب شعره، أن يتغضّن جلده، أن ترقّ عظامه. على غرار العلاقات

Twitter: @ketab_n

الجنسية، يتطلّب الموت ممهدات. التعب والخيبات والأمراض هي المداعبات والقبلات التي تُرخي العضلات وتتيح للموت أن يختطفنا بلطف. لم يكن فيرجيل مهيّأً؛ لم تكن قدراته على إنتاج الألم والمآسي قد استُثمِرت بما فيه الكفاية.

كان الوقت قد حان للحساب. لو قيّض له أن يصف نفسه، لو قيّض له أن يصف الرجل الذي سيفقده العالم، لقال ما يلي:

عمره واحدٌ وثلاثون عاماً ووزنه اثنان وسبعون كيلوغراماً. يرتدي دائماً بالطريقة نفسها: بنطالٌ من المخمل الداكن وبلوزة بياقة على شكل الحرف V وقميصٌ ذو مربّعات، وحذاءٌ إنجليزي. لديه هاتفٌ نقّال من طرازٍ قديم متين كفايةً لمقاومة السقوط المحتوم يومياً. لثلاث مرّات في الأسبوع، يتلقّى دروساً في اليوغا في نادٍ رياضيّ ضخم في ساحة الجمهورية. كان عبّاد الشمس الزهرة الوحيدة التي يشتريها ويهديها. يشاهد أفلاماً بالأبيض والأسود فقط وحينما يستهويه فيلمٌ بالألوان كان يضبط التلفاز على وضعية إزالة الألوان؛ لم يكن يستمع إلا إلى الأسطوانات، ويشرب منقوع الهندباء ويستخدم نوعاً وحيداً من الأقلام وهو قلم بيك برتقالي اللون بسنّ أسود. بشكلٍ عام، كان يحبّ الأشياء التي عمّرت، الثياب، الأفلام، الكتب. الأشياء القديمة قاومت؛ كان يكتسب منها خبرة في الحياة. الأشياء الجديدة ليست بالغة؛ إنّها لا تحتوي على شيءٍ من عزلتنا.

كان فيرجيل يعمل في وكالة للإعلان تقع في شارع سان-انوريه ليس بعيداً عن متحف اللوفر ويقيم في عمارة للدعارة في شارع

Twitter: @ketab_n

دونكيرك، تماماً مقابل محطة الشمال وتماثيلها. كانت دارُ سينما كاليبسو للأفلام الإباحية تشغل الطابق السفلي من العمارة. من أصل الشقق الستّ عشرة من العمارة، تُستخدم خمس عشرة شقة منها للدعارة. احتاج إلى بعض الوقت كي يعتاد على التأوّهات الدائمة للعاهرات وزبائنهنّ؛ اليوم لم تعد تزعجه أكثر من جوقة الصراصير في بروفانس. كان القليل من التعجّب والصرخات والزمجرة يصدر عن شقّته. ستكون لموته عاقبة خطيرة، كان فيرجيل يعرف ذلك: سوف يشهد علم الكوارث العاطفية انتكاساً جدّياً.

كان القمر، وهو يُضيءُ بقايا وجبته، يميل على محور ساعة المحطّة. كانت أسطوانات وكتبٌ مبعثرة على أرضية الغرفة وكان بنطالُ فيرجيل مرمياً في المطبخ. ملأ ما يقارب عشرة أكواب من النبيذ بأشكال مختلفة (ذات قاعدة رفيعة، ضخمة، طويلة، منفوخة، مضلّعة، على شكل كمثراة، مرصّعة، جرداء، خشنة) ونشرها في كلّ مكان مثل حرّاس. من حينٍ إلى آخر، كان زبائن العاهرات يُطلقون صيحات المسرّة في طول العمارة وعرضها.

كان بيني غودمان يؤدّي أغنية As long as I live. وضع فيرجيل جهاز الهاتف على ركبتيه واستمع إلى الرسالة المسجّلة مرّة أخرى: «فيرجيل. أنا كلارا. أنا آسفة، ولكنني أفضّل أن نتوقّف هنا. سوف أهجرك يا فيرجيل. سوف أهجرك».

تأمّل مباشرة الإحباط الكامن في صوت كلارا. كره نفسه لكونه سبب حزنها. لم يعد يبالي بحالته الصحية: شعر بالذنب. في الوقت القليل المتبقّي، قرّر أن يتصرّف بلباقة وأن يتحمّل كامل مسؤوليته.

Twitter: @ketab_n

كان يجهل أسباب نهاية حكايتهما، ولكنّه لم يكن من الصعب عليه إيجاد بعضها: لم يكن يودّ الذهاب في عطلة، ويحوّل كلّ شيء إلى سخرية، لم يكن يؤمن بشيء وكانت روحه المتناقضة مغيظة. تفهّم قرار كلارا. لم يكن أهلاً للحياة الزوجية. لا بدّ أنّها قد حاولت أن تُغيّره، ولكنّه كان عصيّاً على ذلك.

لم ينقطع هاتفه عن الرنين. بفضل فوستين، شاع الخبر بين أصدقائه. شاع الخبر من باربيس إلى غامبيتا، مروراً بستالينغراد وستراسبورغ - سان-دوني. كان أصدقاءه قد علموا بأمر انفصاله وبالوقت نفسه بأمر قصّة حبّه الزائلة. لم يكن أحدٌ يعلم بعلاقته مع كلارا. قرّر فيرجيل ألاّ يُقلق أقاربه وأن يكتم أمر مرضه، فقدانه للذاكرة. اختلق الحكاية المحتمَلة للقائه بالمرأة الشابّة أثناء سهرة مود وعلاقتهما القصيرة للغاية. اعترف: «نعم، لقد أحببنا بعضنا، ولكنني معقّد جداً، ستكون أفضل حالاً من دوني».

بكى، على نفسه، على عجزه عن العيش، على حبّه الضائع.

عزم على أن يسوّي أموره لأنّه كان لا يزال قادراً على ذلك، أن يضع حدّاً لاشتراكاته ولعقوده. ومن ثمّ، كان بحاجة إلى أن يفشي شقاءه لأحدٍ، لشخصٍ مجهول وأن يتحدّث عن غمّه. اتّصل بالعامل الفنيّ الذي كان يُصلح هاتفه.

اكتشف فيرجيل آنذاك أنّ فسخ عقد مع شركة يضاهي انفصالاً عاطفياً: أرادت المستشارة أن تعرف السبب وطلبت فرصة ثانية وحاولت أن تثنيه عن قرارِه بتقديمها عروضاً له. حينما كشف فيرجيل حالته وعدم جدوى خطٍّ هاتفيّ بعد الآن، أعلمته المستشارة بأنّ

Twitter: @ketab_n

الهاتف سيُقطَع في نهاية الأسبوع. أصبح صوت أصابعها الناقرة على أزرار حاسوبها أكثر خشونةً. تخيّلها فيرجيل بأظافر مطلية بالأحمر القاني وبشعرٍ مربوطٍ بعصيفة. كان لديها عددٌ محدّد من الزبائن عليها إنجاز معاملاتهم. تمنّت له سهرة سعيدة وأغلقت السماعة.

كان فيرجيل وفياً لهذا العامل الفنّي منذ سنوات، كان ينتظر القليل من العاطفية. لإثارة الانفعال والحسرات، كان عليه أن يتصرّف بذكاءٍ أكثر.

اتّصل بشركة الكهرباء. ردّت امرأة. كان صوتها الناضج والخشن يدلّ على أنّها متقدّمة في العمر وأنّها تدخّن. جعل التعب والانفعال صوت فيرجيل يرتعش. كان خائراً قرب الأريكة، يتصبّب العرق من جبينه. كان الصالون مناراً على نحوٍ خافت بضوء المطبخ. سألته المرأة عن سبب إلغاء الاشتراك.

- أنا مصابٌ بمرضٍ خطير.

غمغمت المرأة. أدرك فيرجيل أنّها لم تكن باردة القلب. جهد لكي يسعل. سالت دموعٌ على خدّيه. كانت أنامل المرأة قد كفّت عن لمس لوحة الأزرار. كانت تُصغي. استسلم فيرجيل لشفقة تلك اللحظات. أتاح له السُّكر أن يتحمّل المأساة. شعر بأنّه ذهب بعيداً جداً.

- آمل أنني كنتُ زبوناً صالحاً.

حاولت أن تتماسك وقالت له بصوتٍ مخنوق أنّها حاضرة ومستعدة لأن تستمع إليه. لم يتشكَّ فيرجيل. أخبرها بصوتٍ رزين بأنّه قد قبل بالمصير المحتوم وأنّه أَلِفَ الفكرة.

Twitter: @ketab_n

حينما أغلق السمّاعة، أدرك بأنّه قادرٌ على إعلان الخبر للمقرّبين منه وإيجاد الأعذار لنفسه، بل كان يمتلك ما يكفي من القدرة على تقبّل القدر ليخفّف عنهم. فتح زجاجة النبيذ الثالثة.

بعد أن فرز ورتّب أوراقه وبريده، كتب رسالة فسخ عقد إيجار شقّته بأسلوب لائق. لم يكن فيرجيل يعتبر نفسه مصاباً بوسواس المرض، ولكنّه منذ بضع سنوات كان قد أُصيب بأعراض مقلقة جداً بحيث اعتقد مراراً بأنّ ساعته الأخيرة قد حانت. وبالتالي، كان لديه مخزونٌ صغير من الوصايا التي سبق وكتبها. طبع آخر نسخة منها (وقد أضاف إليها ملاحظة بخط اليد ليطلب أن يُنثَر رماده في مشلح النساء في مسبح أوتوي)، ودسّها في ظرفٍ ووضعه فوق المدفأة.

Twitter: @ketab_n

حتى وإن كنتم مصابين بأسوأ الأمراض، لن يعاملكم الأطباء قط بذرّة من الاحترام الذي يكنّونه للفيروس والتعفّنات والخثرات. فالجسد هي علبة الجواهر التي يدخل من خلالها بيولوجيون ومصورون إشعاعيون وجرّاحون في اتصالٍ مع الأشياء الوحيدة ذات الجاذّبية على هذه الأرض: البكتيريات وسواها من الكائنات الدقيقة القاتلة والتي يجعل تعقّدها أكثر اختراعاتنا تقدّماً مثيراً للسخرية. رغم تطوّره المتواصل داخل أكاديمية التدمير، رغم قدرته على التجريح والإذلال ونشر العدوى، ظلّ الرجل عاشقاً. تفتقر مناهجه البدائية إلى الفنّ لكي تُقارَن بالاختراعية اللامتناهية للأمراض. على حضارتنا أن تحقّق المزيد من التحسّن لكي تطمح ذات يوم إلى نيل لقب المرض المستوطَن.

لم يكن فيرجيل يُطيق المستشفيات. كان يرى أنّه أمرٌ ذو دلالة أنّ الأماكن التي يُفتَرَض أنّها مخصّصة لمنع الموت مفتقرة إلى هذه الدرجة إلى الجمال والحياة.

كان لصَلْب شعورنا الجمالي معنى: فهذه العمارات الجانحة تحمل فكرة ما عن الرجل وتُغيظه. ما أن يمنحه حسابه المصرفي

Twitter: @ketab_n

إمكانية ذلك، سوف يخلي فيرجيل مراكز العناية الصحية إلى مشفى خاصّ. بالتأكيد كان من أنصار الدفاع عن الخدمة العامّة وتدخّل الدولة في الاقتصاد والضرائب المرتفعة، لكنّ سلوكه كان أقرب إلى سلوك رجلٍ أرستقراطيّ فرداني منه إلى سلوك شخصٍ معادٍ للعولمة النيوليبرالية.

كان يرفض أن يكون مريضاً مطيعاً: الإذعان لطبيبه المعالج، الذهاب إلى قسم التصوير للحصول على صورته الإشعاعية، إظهار بطاقته للضمان الاجتماعي وبطاقته التأمينية. كان يحتاج إلى اللطف والرعاية لتعويض الأضرار الدماغية التي أصابته. حينما تكون لديك الموارد لصرف مبلغٍ زهيد، لا تحصل سريعاً على موعد فحسب، بل ويحترمك الأطباء كما يحترمون بعضهم بعضاً، أي بالكثير من اللطف والحنان.

كان مركز التصوير الإشعاعي يقع في ضاحية ماريه، على بعد خطوتين من متحف كارنافاليه. ما كان فيرجيل ليحلم بجيرة أفضل من هذه: في داخل هذا المتحف، كان يوجد تاريخ باريس، من اللقى اللوتيسية ولغاية الفنّ الحديث. لا يفعل الطبّ فعله تماماً إلا إذا أضفنا إليه مراهم الإبداع الإنساني. لا تكفي جزئيات دستور الصيادلة، يجب أن يتضمّن العلاج أيضاً الطبّ التجانسي لمرمر فولتير بوساطة هودون، والطبّ التجانسي للوحات فراغونار أو بوساطة مقطوعة لباخ على الفيولونسيل.

كانت واجهة عيادة التصوير الإشعاعي رائعة. رأى فيرجيل في كلّ مبنى قصيدة؛ فكان يكتشف فيها السجع والقوافي وترابط

Twitter: @ketab_n

المعاني، فيلتقط منها الشكل والإيقاع. أحياناً كان فنّ المعماريّ غير متقنٍ. اكتشف اليوم قصيدة مدهشة من حجر البلاط والأفاريز والشرفات المنقوشة. كان للبنّائين والشاغلين الميل للأشياء الجميلة. أثارت الواجهة في فيرجيل مشاعر رائعة. شعر بتحسّنٍ طفيف في حالته.

ليخفّف من حالة انهياره، وضع قرصاً مضاداً للقلق تحت لسانه ليذوب. لم يبارحه الخوف ولكن خفّت شدّته. كان فيرجيل يمسك بعلبة المهدّئات في قاع جيب سترته. دفع الباب ودخل.

- صباح الخير، يا سيّد.

كان السكرتير يحفظ جدول المواعيد عن ظهر قلب، توجّه إلى فيرجيل وكأنّه زبون صالون للتزيين. كان ذلك ممتعاً. أرخى فيرجيل الضغط على العلبة في جيبه. صافح السكرتير متصنعاً اللباقة. سوف لن ينسى هذا الأخير قبضة يده، سوف لن ينسى نظرته العميقة والكئيبة.

لم تكن العيادة تنشر الرائحة التي تتميّز بها المستشفيات عادةً، وإنّما رائحة قهوة وورود. كانت هناك على الجدران، صور بالأسود والأبيض لحيوانات في سهوب أفريقيا. أمام طاولة الاستقبال، كانت أرائك مصنوعة من النسيج التوتيّ اللون تشغل الصالون على شكل نصف دائرة؛ وكانت مجلات فنية وتُحف تتبعثر على الطاولة الخفيضة. خلف الطاولة، كانت سلسلة من أصص الزهور مصفوفة على رفّ.

قال فيرجيل:

Twitter: @ketab_n

- جئتُ مبكّراً، هذا سيتيح لنا كسب الوقت حول تطوّر. . .

أشار بإصبعه إلى جمجمته. ابتسم السكرتير واقترح عليه الانتظار في الصالون. جلس فيرجيل وتصفّح مجلّة خاصّة بروافد المذبح والمواضيع الأخرى في الفنّ الديني.

بعد بضع دقائق، ظهرت الطبيبة وهي امرأة طويلة القامة ترتدي بلوزة بيضاء وحذاءً جلدياً طويلاً أصهب اللون. كانت عيناها صافيتان وشفتاها مصبوغتان بلون وردي. أوحى كلّ شيء في وجهها بالعطف والحنان، غمازتاها، أهدابها، أنفها وتحدّب جبينها العريض. كان كلّ جانب من كينونتها يولّد طيبةً. تحدّثت عن الفحص كروتينٍ بسيط. كان لطفها مهيباً. بفضل حضورها، يفقد أيّ شيءٍ خطورته؛ فحتى وهي تخبر أحدهم بموته الوشيك، كان الحدث يفقد شحنته المأسوية.

قال فيرجيل وهو يسير خلفها في ممرّ:

- لا أريد أن أبقى على قيد الحياة بطريقة مصطنعة.

تخيّل جسده راقداً في بياض سريرٍ في مستشفى، وأنابيب تدخل وتخرج من فمه وأنفه وأوردته، محاطاً بالآلة المخرخرة وجهاز التنفّس الاصطناعي والجهاز الكهربائي لتخطيط القلب، ووالداه قرب سريره ومزهرية مليئة بالزهور.

- سوف نجري فحصاً، لن يعرّضك هذا لأيّ خطر أو ضرر.

كان حاجزٌ زجاجي يفصل بين جهاز السكانر وحواسب التحليل. شرحت الدكتورة تفاصيل عمل الجهاز. لم يفهم فيرجيل شيئاً، ولكنّ

Twitter: @ketab_n

التحليل الشفهي للجهاز ساهم في تهدئته. حاول أن يقنعها بإخضاعه لتخديرٍ عام. اعتقدت أنّه يمزح وهو من جهته لم يلّح على ذلك.

أُعجِب فيرجيل بجهاز السكانر. بنوعٍ من التشوّه المهني، ما أن اكتشف جهازاً، لم يستطع الامتناع عن التفكير بالطريقة التي يتمّ استخدامه لكي يجعله جذّاباً. لم تكن الأعمال المنزلية تتوافر على هذا الجهاز الضروري. كان يمكن لحملة إعلانية مناسبة وتطوير في الصناعة أن يغيّر هذا الواقع.

رافق ممرّضٌ فيرجيل وساعده في الاستقرار على سرير الفحص. حقنه بسائل للتباين. في الأثناء، روت له الدكتورة قصّة اختراع السكانر لكي تجعله يتحرّر من التوتّر ويسترخي. كانت الطبيبة المتدربة تنتمي إلى صنفٍ في طريقه إلى الزوال: صنف الأطباء الإنسانيين والمثقّفين. كانت خلف الحاجز الزجاجي للصالة وتتحدّث عبر لاقطٍ للصوت. كان هناك مكبّرٌ للصوت صغير الحجم فوق جهاز السكانر. ملأ صوت الطبيبة الحجرة الباردة لتروي سيرة المخترع المتعددّ المهن غودفري هونسفيلد والعجيب الذي تمّ الأخذ بأبحاثه. في بداية الخمسينيات من القرن العشرين، التحق بدار الأسطوانات والإلكترونيات، وضبط فيها أوّل حاسوب مزوّدٍ بناقلٍ إنجليزي للطاقة. كان ذلك عملاً باهراً ولكن الآلة المجدّدة لم تُثر اهتمام أحدٍ. بسبب هذا الفشل التجاري، تمّ تجميده في العمل: نُقِل إلى المخبر المركزي للأبحاث.

في هذه الفترة، عرفت فرقة البيتلز أولى نجاحاتها العالمية وملأت صناديق دار الأسطوانات والإلكترونيات. ترك الإداريون

Twitter: @ketab_n

المنذهلون بهذا الثراء العفوي عالِمَهم المجنون هونسفيلد وشأنه. كان حرّاً في إجراء الأبحاث وفق اختياره وفي صرف الوقت والمال عليها. فعمل هونسفيلد بلا انقطاع على أفكاره. ختمت الدكتورة بأنّه توصّل ذات يوم إلى النتيجة المرجوّة: أوصل أنبوباً لأشعة إكس مع معالجة مبرمجة للمعلومات المستجمعة. بعبارة أخرى، لقد اخترع السكانر. أُعجِب فيرجيل بهذه القصّة؛ فقد كان لها قوّة وجمال أسطورة قديمة: الموسيقى التي تغلّبت على الموت.

مرّت حرارة شديدة على وجهه وجبينه. ارتعش شعره. فقد دغدغه هذا الانتشار الإنساني والتقني بالنسبة إليه. شعر بأنّه ذو أهمية. فكّر بسنوات البحث الضرورية لاختراع هذه الآلة، فكّر بالمهندسين، بالأطباء، بمعاناة ماري كوري بسبب الراديوم الذي كانت تتعامل معه بدون وقاية في عنبر مدرسة الفيزياء والكيمياء في باريس.

بعد أن انتهى الفحص، قاد الممرّض فيرجيل إلى غرفة مجاورة. عرضت الدكتورة الصور الإشعاعية على المنظار وكأنّها لوحات مجرّدة. منح الضوء الأشكال السنجابية اللون هيئة مخملية. نظر فيرجيل إلى الكتل الغامقة والثقوب المنتشرة فيها. بدا له وكأنّ دودة دماغية قد حفرت دهاليز في جمجمته. أمسك جمجمته بيديه واعتقد أنّ هذه نهايته. جفّ فمه ونبض الدم في صدغيه وزاغ بصره.

قالت الدكتورة وهي ترتّب الصور الإشعاعية في مغلّفٍ كبير أعطته لفيرجيل:

- كلّ شيء طبيعي.

Twitter: @ketab_n

حينما يخشى المرء الأسوأ، يكون الإعلان عن خبرٍ سارّ ببساطة وهدوء مخيّباً للآمال. لا بدّ أنّ فيرجيل أراد أن تكون هناك صيحات وحلويات وعناق وخطاب وشامبانيا؛ أن يحتفل موظّفو العيادة بالحدث بما يليق بأهميته.

- هل أنتِ متأكّدة؟

- لا أمزح في هكذا موضوع.

- هل أستطيع طلب رأي ثانٍ؟

قالت مبتسمةً:

- أنا طبيبة ولستُ مفسّرة نصوص مقدّسة.

كان فيرجيل شخصاً مشوّشاً لا يتطلّب دماغه المزيد من القدرات ولا يُثيرُ تعقّده مجادلات بين الأخصّائيين في المؤتمرات الدولية ومقالات في المجلات الطبية.

هكذا ورغم المظاهر ورغم أحاسيسه الخاصّة، كان فيرجيل بصحّة جيّدة. شعر بالارتياح وفي الوقت ذاته شعر بالخجل لأنّه لم يكن أكثر شجاعةً. بعد زوال الخطر، شدّ كتفيه واستعاد هيئة الرجل الواثق بنفسه. شكر الدكتورة ودفع للسكرتيرة؛ خرج وهو يحيّيهما بحركة لا مبالية.

Twitter: @ketab_n

كان يحتاج إلى ثلاث حافلات ليصل إلى عبّارة بتيزيكوريه. أثناء قطعه لتلك المسافة، تعوّد ثانية على فكرة العيش؛ أحبّ الحركة البسيطة لتنفّسه، من شفتيه ولغاية قصبات رئتيه. بدا له كلّ شيء مختلفاً، ذي نوعية بلاستيكية منيرة ومستحدثة: الأوراق المرمية أرضاً، اللون الرمادي للحمام، اللوحات الإعلانية، السيارات. كان يرى لأوّل مرّة. اختفى مفهوم الابتذال من قاموسه الحميمي وبدا الواقع وكأنّه من إخراج وتزيين فنّانٍ سوريالي. اعتقد بأنّه قد فقد الحياة، فقد العالم مؤقّتاً. وقد استعاده أكثر حضوراً من ذي قبل وأكثر صدقاً وجمالاً. كان المرور بالسكانر قد فعل فعله كحاضنة للخديج الذي كانه قبل واحدٍ وثلاثين عاماً. استعاد قواه واشتدّ جهازه المناعي واكتسبت حواسه خلايا عصبية جديدة.

ما أن أغلقت الدكتورة الباب، أخبرها فيرجيل بالخبر:

- لا أعاني من أيّ شيء.

لم تُفاجَأ الطبيبة النفسانية. من وجهة نظرها، كان فيرجيل يعاني من بعض الأمور: هذه الحادثة ستطرح مسألة وسواس المرض. حسب فيرجيل (وعلى الأرجح لم تكن الدكتورة زيتكين تشاطره هذه

Twitter: @ketab_n

النظرية)، كان وسواسه المرضي تسلية أكثر منه عُصاباً نفسياً: حينما يكون المرء عازباً، مع كلّ هذا الوقت الفارغ المبدّد في عدم ممارسة الحبّ وعدم التنزّه في الغابة يداً بيد، وعدم الذهاب إلى السينما لمشاهدة فيلم رومانسيّ عظيم، لا تكون هناك نشاطات أكثر إثارةً من المرور على أجهزة التصوير الإشعاعي وتخطيط القلب الكهربائي والخضوع لشتّى الفحوصات الطبية. ملأت الدكتورة كوبها بالشاي، فغبش البخار عدسات نظارتها على نحوٍ خفيف.

قال فيرجيل دون أن يكلّف نفسه عناء الجلوس:

- اعتقدتُ أنني مريضٌ وأن ذاكرتي تخونني.

وضع يديه على الطاولة وانحنى نحو الطبيبة النفسانية.

- في الحقيقة، كانت هذه الفتاة تتسلّى بتركها رسالة مسجّلة على هاتفي. ثمّ اتّصلت بفوستين لتخبرها بأنّها قد هجرتني. إنّها فتاة مخادعة.

- ولماذا تُقدِم على هكذا أمور؟

- لا بدّ أنّها مجنونة.

- أنت ترى الجنون في كلّ مكان. هذا يجنّبك مواجهة التعقيد.

أذهلت الفكرة فيرجيل. حاول أن يُعلّق عليها ولكنّه لم يجد ما هو مناسب ليقوله. نهضت الطبيبة النفسانية وفتحت الباب وقد بدا عليها الرضى عن الاضطراب الذي تركت مريضها فيه.

كان مطرٌ خفيف يهطل على جادة ستراسبورغ فلاذ باعة الذرة المشوية بالمظلات واكتظّت صالونات الحلاقة بالناس الذين

Twitter: @ketab_n

يتناقشون ويشربون القهوة فيها. خلع فيرجيل سترته. كان مستعجلاً للقاء آرميل والاستفادة من نصائحها.

سار بخطى خفيفة متطلعاً إلى الفراغ. أراحته مداعبات المطر. لم يكن قد نجا من الموت وإنّما، للحظة، من فكرة الموت، وفكرة الموت أخطر من الموت نفسه، لأنّها تلاحقنا طيلة حياتنا. كان كلّ فحصٍ طبّي يُتيح لفيرجيل أن يختبر انبعاث العالم ويجدّد نشوته. حتى وإن كان أمل الحياة لا يكفّ عن الإطالة، كان يعيش في حالة القلق والضعف نفسها بالنسبة إلى جسده وإلى المرض كما هو حال رجلٍ من القرون الوسطى: لم يكن يشكّ في أنّ زُكاماً بسيطاً يستطيع أن يصبح مميتاً.

كانت حياة فيرجيل حسنة التنظيم. كان يرتاب في شرود أفكاره كما كان معتاداً على كبحها بالهدوء مثلما يُروّضُ حيوانٌ وحشي. أتاح له الوصول إلى الاستنتاج بجنون هذه المرأة إنهاء المسألة. ولكن الدكتورة زيتكين طبعت الشكّ في ذهنه ببطء.

لو تمعّن فيرجيل في المسألة بموضوعية، لكان عليه أن يقرّ بأسبابٍ أخرى غير الجنون. كان ذلك يُفزعه ويُثير اهتمامه في آنٍ واحد. بينما كان يصعد جادة ماجانتا، فكّر بكلارا كما يفكّر بمسألة رياضية معقّدة. توقّفت الحافلة. صعد إليها وجلس في المقعد الخلفي.

بدأ بجدولة التفسيرات المحتَمَلة وترتيبها. خطّ عموداً في أسفل الكتاب الذي كان يحتفظ به في جيبه. عضّ على طرف القلم واستجمع أفكاره. كانت على الأرجح فكاهةً. لقد تجاوزا سنّ

Twitter: @ketab_n

الفكاهات الهاتفية. ثمّ لم يكن الأمر مضحكاً. أهو الجرح النرجسي والانتقام؟ ربّما لم يُعر انتباهاً لتلك الفتاة خلال السهرة فمثّلت عليه هذه الفتاة الغائظة هذا الدور لتنتقم منه.

كان لبقاً، ولكنّ طيشه يجعل من خطوة خاطئة كهذه أمراً محتَمَلاً. فكّر أن يحمل إليها باقة زهور. حينما توقّفت الحافلة أمام محطّة الشمال، لم يكن قد عثر بعد على جواب، ولكنّ المشكلة لم تعُد تثير اهتمامه حقّاً، فقد امتلأ سعادة بتأكيد عودته إلى صفوف الأصحّاء.

Twitter: @ketab_n

حان وقت الغداء والمطر ينهمر من السماء كصفيحاتٍ شفيفة. أمام المدخل الفخم للمحطّة، لم تكن مقهى تيرمينوس نورد تفرغ من الناس. كان رجال أعمال وسوّاح بلجيكيون وإنجليز وهولنديون وفرنسيون يتناولون فيه وجبتهم الأولى في باريس أو يشربون قهوتهم الأخيرة على البار قبل الرحيل. كانت الحقائب تسير على الأرضية المزخرفة وتتهادى قرب الطاولات كحيواناتٍ منزلية أليفة والبزات والفساتين متنوعة بعدد الحاضرين المسترخين ويفتح قشّار السمك المحار ويتنقّل الندَّل من طاولة إلى أخرى محمّلين بأطباق من ثمار البحر، فتمتزج رائحة السمك الطازج برائحة القهوة. كان الروّاد يتناولون طعامهم على البار أو في الصالة الصغيرة في عمق المطعم الصغير.

كانت آرميل تشرب مياه بيرييه الغازية على الرصيف وتنتظر بكثيرٍ من الفتنة والأناقة (أمّا فيرجيل فكان يضرب الأرض برجليه ويربّت بيديه على ساقيه ويحرّك قدمه ورأسه). كانت المرأة الشابّة الهدوء بعينه، لم يكن جسمها يُزعجها وعقلها يعمل دون أن يعضّ على جسدها. تنتظر كما لو أنّها تمارس نشاطاً نبيلاً، فنّاً من فنون

Twitter: @ketab_n

الأسلاف، معقّداً ورهيفاً. ترتدي معطفاً خفيفاً أسود اللون ذا قلنسوة مطرية فوق جلبابٍ قطنيّ أبيض اللون؛ ووشاحاً بنفسجيّ اللون يلتفّ حول عنقها وتحت شعرها الجميل. أخرجت عدّة كتب من حقيبتها.

تعارف الصديقان في كليّة الفلسفة. جاءت آرميل مدفوعةً بوحي مباغت، وجلست بجانب فيرجيل في المدرّج الذي تُعقد فيه ندوة حول ستانلي كافيل. وقد تعاطفا مع بعضهما مباشرة لدى التعليق على الصورة الجدارية الكبيرة لبوفيس شافان، وهي صورة رمزية تمثّل العلوم والفنون على هيئة شخصيات ملوّنة وآلهة الفنّ. كانت عبارة عن ترياقٍ للتماثيل الستّة المثبّتة في حجرات المدرّج، الشخصيات الذكورية الحزينة والجدّية.

خلال هذه الرحلة المدهشة التي كانت عبارة عن حوارهم الأوّل، وقع فيرجيل في حبّ زميلته.

حينما أخبرته بأنّها مثلية جنسياً، طلبها، بإحساسٍ رفيع، للزواج متوسّلاً إليها. بعد أن ثملا معاً لبضع مرّات، لم يفترقا عن بعضهما قط. كانت لآرميل مكانة خاصّة، لم تكن تنتمي إلى عالم الأصدقاء الآخرين نفسه لفيرجيل؛ لم تكن تعرفهم ولم تبدِ رغبة في اللقاء بهم. كان لديها أصدقاءها الذين لا يخالطهم فيرجيل وكانت صاحبتها المثلية آن-إليزابيت تُقيم في ستراسبورغ.

لم تكن آرميل محبّة بما فيه الكفاية للمدرسة لتأمل ذات يوم أن تنال الشهادة وتقوم بتدريس الطلبة. بعد أن أنجزت أطروحتها للدكتوراة بقليل (رغبة المرء في ألّا يكون مفهوماً في أعمال نيتشه)، بدأت بعرض إعلانات جنسية (لم تعد تطيق تحرّشات الطلاب).

Twitter: @ketab_n

أربكت رؤية صورها الأولى فيرجيل. كان وجهها ضائع المعالم، لأنّها تبدّل سحنتها بموهبة. وتتيح لها مساحيق التجميل والشعر المستعار والعدسات الملوّنة والمجوهرات والأوشام المؤقّتة أن تحافظ على تنكّرها. كانت مجلات الإغراء وكاتالوغات الألبسة الداخلية ومواقع الإنترنت تتخاطف صورتها. كان فيرجيل كصديقٍ وفيّ وذي ضمير يرافقها إلى ستوديو داغير لجلسات التصوير ويحتفظ تحت سريره بنسخة من المجلات التي تُنشَر صورها فيها.

كانت آرميل تودع معظم أجورها في المصرف وتعيش في غرفة على السطوح في شارع موبوج قرب محطّة الشمال وتتابع يومياً دروس الجامعة الحرّة لعلوم التنجيم في بازيليك الفنون والمهن. ولأنّ علومها الجامعية لم تمنحها الوصول إلى مهنة لائقة، قرّرت، ببراغماتية، أن تؤمن بتأثير الأجرام السماوية على الكائنات البشرية وأن تصبح منجّمة. ذات يوم، سألها فيرجيل إن كانت فعلاً تؤمن بالتنجيم. فأجابت:

- طبعاً، طالما قرّرتُ ذلك.

لم يكن هناك أيّ تبجّح في تأكيدها؛ فقد كان يقينها لطيفاً وراسخاً في آنٍ واحد. كان فيرجيل يجهل كلّ شيء عن ماضي صديقته، ولكنّه لاحظ وجود ندبة جرحٍ قديم على ساعدها الأيسر وأحياناً يكتشف بارقة يأسٍ في عينيها وآثار كآبةٍ على شفتيها. كانت تلك العلامات الحزينة تختفي وتستعيد آرميل رقّتها وظُرفها ولكنّ فيرجيل كان يشكّ بأنّها قد شُفيت من مرضٍ خطير. كانت بحاجة إلى أرضٍ لتضع قدميها عليها. وكان ذلك أمراً حيوياً. لتكن تلك الأرض

Twitter: @ketab_n

فانتازيا، أسطورة بدائية، إبداعاً يجعلها أكثر صلابةً واستقراراً ممّا لو أنّها تنتمي إلى العالم الحقيقي: لم تكن تضاريس عالمها تتعلّق إلا بها.

اعتقد فيرجيل أنّ ذلك خسارة تشبه إلى حدّ ما كأن تترك مغنية سوبرانو مهنتها في الأوبرا لكي تغنّي في التلفاز. كانت آرميل تتقن اللاتينية والإغريقية القديمة، وكانت معارفها التاريخية والفلسفية ظاهرة استثنائية. طبعاً، كانت مصابة بداء فقد ملكة الإدراك الحسّي. حينما بيّن فيرجيل غياب الأسس العلمية للاستبصار، ردّت عليه بأنّ الإعلان كان الدليل على استمرار التفكير السحري وعلى ما هو غير عقلاني في المجتمع المعاصر. لا أحد يفلتُ من الإيمان. كان التنجيم يرى على الأقلّ، ادّعاءه الأعزل بصيته السيئ. في لحظة، حاول فيرجيل أن يقودها نحو نشاطٍ عقلاني؛ أكّد لها أنّه يجب على التنجيم أن يتعلّم منها وليس العكس.

أجابت:

- هذا أفضل. طالما أنّ هذا سيفيد الناس الذين سيأتون لاستشارتي.

على ضوء مصباح صغير في المكتبة الوطنية، أثناء دروسها في جامعة علوم التنجيم تعلّمت تاريخ وتقنيات التنجيم الاصطناعي مثلما تعلّمت العزف على البيانو بالحماس والاندفاع نفسهما. غدا الاستبصار آلتها؛ استوعبت به الصولفيج والسلالم الموسيقية ومختلف الأنماط والأشكال: تفسير الأحلام، علم التنجيم، قراءة الكف، قراءة الطالع، علم التنجيم بالحدس الخالص، التنجيم

Twitter: @ketab_n

باستخدام كرة من الكريستال، التنجيم باستخدام الماء، التنجيم باستخدام المرآة، التنجيم باستخدام الأدوية، التنجيم باستخدام الأرقام، التغطيس، التنجيم باستخدام الرمل، علم الأعداد وعلم الأحرف. أجادت في الوقت ذاته التنجيم البديهي والتنجيم العلمي.

في النهاية، اقتنع فيرجيل بأنّ مشروع آرميل ليس من دون معنى ولا سحر. أدرك أنّ ذلك دليلٌ على الطاقة الحيوية لصديقته.

الاستبصار كما تصوّرته آرميل، لم يكن بدعة وإنّما عاطفة صادقة. عملت دون كلل أو ملل لفهم البشر وإيجاد وسيلة لكي تقدّم معارفها على شكل لغة وممارسة تنجيميتين.

كانت الساعة الكبيرة للمحطة تشير إلى الثانية عشرة ظهراً؛ فقد دقّت أجراس كنيسة سان-فانسان دو بول. جلس فيرجيل بجانب آرميل، فشدّته من خصره وقبّلته على وجنتيه. ترك عطر آرميل من طراز (توبيروز كريمينيل) وشعرها ونظرتها تأثيراً مباشراً على فيرجيل. انخفض كتفاه وارتخت رقبته.

سألت آرميل:

- هل أنت بخير؟

- الموت والحبّ، أنتِ تعلمين.

استغرق شهر تشرين الأول/ أكتوبر جولة مهمّة. شُفي فيرجيل من المرض وسرى لغزٌ في حياته. طلبا شطيرتي كروك-مسيو وطبقاً من السلطة. روى فيرجيل أحداث الأربع وعشرين ساعة الأخيرة. قال بمرارة:

- الآن، سأبدو أحمقاً.

Twitter: @ketab_n

قالت آرميل:

- أرى أن هذه حكاية جميلة.

كانت الحياة العاطفية لفيرجيل موضوعاً كبيراً للنقاش بين أصدقائه. منحهم خبر نهاية لا قصّتهِ الغرامية مادّة لإحياء سهرات برمّتها. فاتّخذ فيرجيل قراراً فاجأه هو نفسه.

- لن أقول شيئاً.

فكّرت آرميل للحظة ووافقته الرأي:

- لا شيء يُرغمك على ذلك.

نظرا إلى بعضهما بتواطؤ مسلٍّ كطفلين قرّرا أن يلعبا لعبة. كان ذلك هو الحل. رسّخت المسيحية فكرة الحقيقة في العقول عبر التعذيب ومحاكم التفتيش ولكن ما أن تمّ التخلّي عن حرق الساحرات ومطاردة اليهود وتبرير العبودية، بدا الكذب أكثر ملاءمة في الحياة الاجتماعية.

- وبما أنّ الجميع يعتقدون بأنّك محطّم القلب، سوف يتملّقونك.

- هذا صحيح.

بالنسبة إلى المحيطين به، كان فيرجيل ضحية التجبّن الأنثوي، حملٌ وديع ضُحِّي به على مذبح العلاقات الشرسة بين الجنسين. منذ أربع وعشرين ساعة، كان أصدقاؤه يتّصلون به ويسألون عن معنوياته ويعرضون عليه مصاحبته إلى السينما ويدعونه إلى المطعم.

- هل ستحاول أن تعرف لماذا سعت كلارا هذه إلى أن تجعلك تعتقد أنّكما كنتما معاً؟

Twitter: @ketab_n

حمل النادل الأطباق وزبدية السلطة ودورق ماء. أفقدت رائحة الجبنة المبشورة فيرجيل تركيزه للحظة. كانت هذه وجبته الأولى منذ تصويره بجهاز السكانر، ولا بدّ أنّ شطيرة كروك-مسيو أفضل ما تناوله على الإطلاق. كانت حواسه متهيّجة، وحساسيته في أقصى طاقاتها. غطّى شطيرة كروك-مسيو بوريقات السلطة المنثورة من الكراث المرقّق والبقدونس.

- أنا بالأساس أعاني كثيراً من فهم الأمور التي يفعلها الناس. إنّها مجرّد فتاة تقول إنّها هجرتني. وتركت رسالة على هاتفي لكي... لا أدري وهذا لا يهمّني. الأمر عندي سيّان.

- أنت لست فضولياً جداً.

Twitter: @ketab_n

وقعت يد فيرجيل على المنبّه في الساعة السابعة وإحدى وثلاثين دقيقة. شعر بأنّه في صحّة مبهرة. تتالت نشاطاته الصباحية: تمارين اليوغا والاستحمام وتناول الفطور (ندائف الشوفان ولبن الصويا، لبن رائب، تين مجفّف وموز). غادر شقّته في الساعة الثامنة والنصف وصادف جارته التي كانت تصعد برفقة زبون إلى غرفتها. داعبه نور الشمس الناعم. ألقى التحية على الفتيات الثلاث على الرصيف وقفز إلى الحافلة.

كانت الحافلة ممتلئة، وجد نفسه بين سيّدتين كانتا تتناقشان حول الأزمة المالية العالمية. عند كلّ منعطف أو توقّف مفاجئ، كان يتهاوى على إحداهنّ أو على الأخرى. وصل إلى بوابة مكاتب وكالة سفينغالي. لم يكن هناك ما يرغمه على الدقّة في مواعيد الوصول إلى العمل حيث لم تكن هناك رقابة صارمة على دوامه.

كان فيرجيل يخضع للقوانين حينما لا تُفرَض عليه؛ فحرية الاختيار شرط طاعته. كانت ساعات الدوام (من الساعة التاسعة ولغاية الخامسة مساءً) تمنح إطاراً ليومياته؛ كان عمله حبيس سجنٍ زمني.

Twitter: @ketab_n

بسبب المشاكل القضائية العديدة لسيرك والديه، امتلك باكراً جداً حساسية حيال العدالة. فانضمّ بعد نيله الشهادة الثانوية إلى كلية القانون، لكنّ هذا التوجّه الجامعي جعله يغرق في نوبات نومٍ قصيرة وعميقة: ملّ فيرجيل الموت. تجنّباً للوقوع في غيبوبة محتومة، أصبح طالباً حرّاً في الفلسفة. لم ينقذه هذا الاختيار فرضخ سريعاً جدّاً لحكم الواقع: كانت درجاته في امتحانات القانون المدني والإداري تقضي بأن يشغل وظيفة ثانوية وبراتبٍ زهيد، وظيفة مؤقّتة وكئيبة كموظّفٍ مكتبي أو في أحسن الأحوال ككاتب عدل. لم يكن سليل عائلة من البرهميين (برهمي: أحد أفراد طبقة الكهنوت العليا عند الهندوس)، مدّت له البروليتاريا الرثّة يدها. كانت مخيّلته خشبة خلاصه.

كان الإعلان هو القطاع الوحيد الذي يمكن لشابّ وهب نفسه للأفكار أن يلجأ إليه ويعيش أياماً من الفراغ والعزلة نسبياً فأرسل سيرته الذاتية إلى عدّة وكالات. استقبلته وكالة سفينغالي للاتصالات لكي يُجري مقابلة تضايق فيها كثيراً لكي يقنع مدير الموارد البشرية بأنّ شخصيته جديرة بالاهتمام.

أُعجِب المدير بدراسته الجامعية المزدوجة وبموهبته في تزوير شهاداته وعيّنه في منصب محرّر. طبعاً كانت صورة فيرجيل من الناحية الاجتماعية سيئة للغاية: وحدهم صانعو الألغام المضادة للأفراد كانت لهم صورة أسوأ من صورته. أصبح الرجل الشاب أضحوكة لأصدقائه. تجاهل سخريات أولئك الذين ولِدوا في ظروفٍ أفضل ويعملون في قطاعات محترمة ظاهرياً. مدفوعاً بالطيش

Twitter: @ketab_n

والتشاؤم، اختلق ذريعة ساخرة حول الدعاية والإعلان. إنّ طول عمر العلامات التجارية يتجاوز طول عمر الزواج. إنّها تمنح إحساساً بالاستمرارية والطمأنينة؛ إنّها الشواهد القائمة للحداثة وأهراماتها. وإذا لم يؤمن الناس بالعلامات التجارية، بماذا عساهم أن يؤمنوا؟ هل بالأيديولوجيات التي توقع الملايين من الضحايا؟ بالحب الذي سيغسلهم؟ يتيح الاستهلاك المقاومة في عالمٍ بلا ربّ، بلا التزامات جماعية ولا تستمر فيه القصص العاطفية لعامين.

تأسّست وكالة سفينغالي قبل قرنٍ ونصف، في عصر تطوير تلك الصناعة، من قبل أحد أسلاف الرئيسة المشتركة الحالية للوكالة (كان زوجها يقيم لديها). بُنيت العمارة قبل الثورة بثلاثة أعوام بعد فترة قصيرة من افتتاح دار المسرح الفرنسي وأمامها تماماً. رُمّمَت الأجزاء الخشبية منها بعد كومونة باريس، لكن الروح التي سادتها كانت بمعظمها تميل أكثر نحو أسلوب لويز ميشيل. كانت وكالة سفينغالي تضمّ حوالي خمسين موظّفاً موزّعين على ثلاثة طوابق. كانت إعلانات وصور حملات الوكالة معلّقة على الجدران: تولوز-لوتريك، موشا، فويارد، فلليني، كاساندر، بياتي.

كانت وكالة سفينغالي بمثابة شرنقة فيرجيل. يحبّ التجوّل في الممرات والعمل في قاعة الاستراحة على وقع صوت آلة تحضير القهوة والإصغاء إلى زملائه وأحياناً إضافة كلمة أو جملة على حديثٍ. لم يكن لديه مكتب وإنّما حجرة في قاعة تسمى «قاعة الإبداع». كانت فكرة تخصيص الإبداع بمكانٍ محدّد مسلّية بالنسبة إلى فيرجيل. عُلِّقَت لوحة صغيرة مكتوب عليها «قاعة الإبداع» (شبيهة

Twitter: @ketab_n

باللوحات الخاصّة بالحمامات أو بقاعة الاجتماعات) على الباب. كان المكان مريحاً. تتمّ فيه الكتابة على لوح أسود كبير والقراءة والرسم والمناقشة.

حتى وإن كان يغريه أن يعتبر زملاءه أحياء دقيقة خليوية، إلا أنّ فيرجيل كان يحسن التفاهم معهم. كان، لدواعي الراحة، يطبّق فلسفة لوفيناس: يمنع وجه الآخر قتل الإنسان ويذكّر بوجود مجتمعٍ إنساني. لم يكن يتوقّع منهم أيّ شيء وبالتالي كانوا يتعايشون بسلام.

كان فيرجيل يكنّ تقديراً ما لوكالة سفينغالي. لم تكن وكالة من تلك الوكالات التي يملأ فيها صبية أنوفهم بالكوكايين ويقبضون رواتب جيّدة ويحتقرون المستهلكين. بالتأكيد لم تكن تنقذ حيوات: كانت تسعى (بميلٍ واضحٍ نحو الإغواء) إلى إقناع الناس بشراء أشياء يمكنهم الاستغناء عنها.

الأماكن فيها مريحة وتحرص الإدارة على الاحتفاظ بتقليدٍ من الأناقة الكلاسيكية. حيث لا وجود للألوان الفاقعة ولا أدوات تكنولوجية ولا أبواب تُفتَح إلكترونياً ولا مصابيح النيون. المكاتب من خشب الكاجو والأرائك من الجلد؛ كان المبنى القديم لا تشوبه شائبة؛ فالديكور يثير حماسة هاوٍ للآثار القديمة. لم يكن من المحبّذ المجيء إلى العمل بحذاءٍ رياضي أو قيادة سيارة فارهة أو جذّابة.

في تلك الأيام، كان فيرجيل يفكّر في عملة دعائية لنوعٍ من اللبن الرائب، لبن عادي ولكنّه منتَج بدرجة أولى بشكلٍ طبيعي في

Twitter: @ketab_n

أوروبا، أي بمزايا لا مثيل لها. ازدحم ذهن فيرجيل بصور لبنية، بأبقار ومروج وملاعق صغيرة.

كانت رائحة البخور المعطّر بالبتشولي تفوح من مكتب سيمون. كان الباب مفتوحاً. تزيّن أقنعة وأدوات زراعية وألعاب وطنافس وسجاجيد الغرفة. كانت سيمون تسافر في العام عدّة مرات إلى بلدٍ من بلدان العالم الثالث لتجلب منه كمية من التحف لتزيّن بها مغارة علي بابا خاصّتها. وتشجّع المحررين والرسامين الغرافيكيين على أن يستمدّوا منها أفكاراً وأشكالاً وألواناً. عالمٌ أشبه بعلبة ألوان وأبجدية؛ إذ يكفي البقاء لبضع دقائق في مستودع مكتبها للاستفادة من تأثير كنوزها.

كانت سيمون تستقبل زوّارها على أرائك جلدية أمام النافذة المقوّسة. يطلّ المشهد على جسر الفنون الذي يؤدّي إلى مباني المعهد وأكاديمياته. تدير سيمون أحد أقسام الوكالة، ولكنّها لم تكن بحاجة إلى أن تتصرّف كمُعلّم، بل تكفيها سلطتها الطبيعية وحسّها الفكاهي وبساطة أسلوبها.

حينما ظهر فيرجيل أمام الباب، دعته إلى الدخول بانحناءةٍ من ريشة الطاووس الأمهق التي كانت تمسك بها. جلس الرجل الشاب على أريكة. اخترع حكاية معقولة عن نوبة التقرّح الجلدي (لكي يُضفي على كذبته ثوباً شاعرياً وجدّياً، قال: أصابني طفحٌ جلدي) لكي يبرّر غيابه. كانت سيمون ترتدي تنورة برتقالية وصفراء بزخارف هندية؛ وتضمّ شعرها بقلنسوة قرمزية. كان فيرجيل قد وقع في

Twitter: @ketab_n

غرامها لدى وصولها. أوقف أمران حماسته وميوله: كانت رئيسته في العمل وغير مدركة لسحره.

أخبرته:

- فكّرنا أن نعيّنك في منصب رئيس المحرّرين.

لم يكن فيرجيل يتوقّع ذلك. بالنسبة إلى مَن اعتاد أوراق العلامات المشؤومة والنسخ الموشّاة للمسودات وتوبيخات الأساتذة، لا يكون للترقية الوظيفية معنى حقيقي. منذ يومه الأوّل في وكالة سفينغالي، اكتفى فيرجيل بطرح الأفكار ولم يقد أبداً حملة إعلانية. كانت له روح كشّافٍ لا روح جنرال. أمسك بالريشة ولوّح بها أمامه وهو يفكّر بموت الطاووس وبريشه الموزّع عبر العالم. أحبَّت سيمون مفاجأته، فأشعلت عوداً جديداً من البخور.

- سوف يترافق هذا مع علاوة في الراتب، بطبيعة الحال.

احمّر طرف عود البخور. لم يفكّر فيرجيل طويلاً قبل أن يجيب:

- هذا لطفٌ منكِ، ولكن هذا الأمر لا يعني لي شيئاً.

ردّت سيمون:

- لا بدّ أنّك تمزح.

أطلقت صرخة خفيفة حينما أحرق عود الثقاب طرف أصابعها. ارتبك فيرجيل لأنّه كان معجباً بسيمون. شعر بأنّه برفضه لعرضها يبرهن عن وقاحةٍ، بل وفظاظة. احمرّ خجلاً وأعاد التأكيد على موقفه. أذهل رفض فيرجيل زيادة راتبه سيمون. في وكالة إعلانية،

Twitter: @ketab_n

يحظى المبدع بهامشٍ للمناورة، وله الحقّ في أن يستغرق بين تأمّلاته، وأن يرتدي جوربين غير متجانسين، وأن يستمع إلى موسيقى الروك الكورية على إيقاع ضرب ملعقة خشبية على طبقٍ وأن يستهلك كلّ المواد التي يرغب فيها. ولكنّ تصرّف فيرجيل تجاوز حدود الانحراف الذي يمكن احتماله. سألته سيمون إن كان لا يزال يتألّم. طمأنها. فجأةً، لم تعد ترى فيه الموظّف الموهوب واللبق: كان مخلوقاً غريباً جداً سوف تتحدّث عنه في الاجتماع المقبل للإدارة. نموذجٌ لا تحتاج إلى جلبه من أفريقيا.

ذهب فيرجيل إلى قاعة الإبداع. كانت للغرفة نافذة كبيرة ذات زجاجٍ متعدّد الألوان.

جلس فيرجيل إلى الطاولة المركزية وأمسك بقلمٍ من ماركة بيك برتقالي اللون بسنٍّ أسود. كتب سلسلة من الكلمات، ثم أسند ذقنه إلى يديه المتشابكتين. ما أن تركّز ذهنه على العمل، شعر بأنّه في حالة جيدة. كانت حياته مضطربة للغاية وكانت العودة إلى الاستقرار ضرورية له. كان يعمل بسبب الشعور الذي يراوده أثناء بذله للمجهود. وفقط بسبب ذلك. لم يكن يرغب في ارتقاء سلم التراتبية الوظيفية. لم يكن يرى ذلك سخيفاً أو مداناً، ببساطة لم يكن الأمر مثار اهتمامه.

أمضى فيرجيل حياته وهو يحاول ألا يصبح مشهوراً. كانت تلك مسألة خلاص بالنسبة إليه. فالشهرة تنطوي على خطرين: يتعرّض المرء للضربات وللنسيان. ولذلك حرص على أن يبقى في الظلّ بعيداً عن المجد.

Twitter: @ketab_n

كان فيرجيل يفكّر غالباً في ماركوس أوريليوس. فحينما كسب هذا الرجل المعركة ضدّ برابرة الدانوب وهدّد روما، لم تتملّكه السعادة وإنّما اليأس. النصر ليس مريحاً. كان فيرجيل مقتنعاً بهذه القاعدة: في الحياة، يجب على المرء أن يجهد في الوقت ذاته لكي لا يخسر ولا يكسب. هذا مرانٌ صعب لأنّ لهذين القطبين قدرة جذبٍ قوية.

Twitter: @ketab_n

كانت فوستين وقد رفعت الريح قليلاً تنورتها الحمراء تنتظر أمام مطعم فو دونغ هو أونغ الفيتنامي في حي بيلفيل. إذا أردت أن تحضر حفل زفافٍ باذخ تحت طقطقة الومضات وتستمع إلى أغاني الحبّ كشخصٍ متنفّذ وتتناول أطباقاً شهيّة وغريبة مكدّسة على عرباتٍ يدفعها ندّلٌ يرتدون قمصاناً بيضاء، اذهب لتناول العشاء في الطابق الأوّل من مطعم بريزيدان. أمّا إذا كنت تفضّل جوّاً أكثر هدوءاً، ستجد ضالتك في مطعم فو دونغ هو أونغ المتواضع.

ارتمت فوستين على فيرجيل وضمّته إلى صدرها وهي الحركة التي لم تكن تملّ منها. جلسا في آخر صالة المطعم. كان ركنهم المفضّل، حيث يتبادل الندّل النكات والطعام شهيّ والخدمة فعّالة والأسعار زهيدة والزبائن بمعظمهم آسيويون. قوائم الطعام مكتوبة باللغة الفيتنامية؛ ومرفقة بصور توضيحية للأطباق. وأيّاً كان الاختيار، لم يكن الزبون يُصاب بخيبة الأمل.

كان فيرجيل قد التقى فوستين أثناء عرضٍ لمسرحية ليلة الملوك في مسرح كولين. كان الممثلون الذين يرتدون زياً كالرجال الآليين يتحدثون بلغة رقمية ويتنقلون في أطباقٍ طائرةٍ صغيرة مشدودة إلى

Twitter: @ketab_n

خصورهم. شعر فيرجيل بتوعّكٍ مبهمٍ بعد خمس دقائق من رفع الستار. أمسكت جارته في صفّ المقاعد فوستين برأسه قبل أن يرتطم بالأرض؛ ورافقته إلى خارج صالة المسرح. استعاد وعيه بفضل كوب من الماء المحلّى بالسكّر ووقع في حبّ منقذته (التي كانت ترتدي، بالصدفة، فستاناً من الموسلين الشفّاف أسود اللون وحذاءً خفيفاً ذا مربّعات)، لكن فوستين لم تبق عزباء لزمنٍ طويل حتى تترك له الفرصة ليعلن لها هيامه بها. كان فوز قلبه بها يتطلّب موهبة العدو السريع نحو الهدف، لأنّ المرشّحين كانوا يتدافعون من حولها. تخلّى فيرجيل الذي لم يكن يهوى المنافسة عن كلّ طموحٍ عاطفي وأصبحا صديقين. سألته فوستين:

- هل تتحمّل؟

- ليس الأمر سهلاً.

أخفض فيرجيل عينيه منكسراً بينما يشعّ ويتألّق داخلياً. انصرف إلى الانشغال بما يُنسيه حبّها: تركيب وصْفَةٍ بكلماتٍ وانفعالات. ثمّ، اعتاد على دور الرجل المهجور، وأجاد شكاوى وسلوكيات هذا الرجل النمطي.

علِمَت فوستين بخبر «الانفصال» قبل الجميع. لو كانت صديقة لكلارا، لعلمت أنّ هذه العلاقة لم تكن قد وجِدَت أبداً، لكن الأمر لم يكن كذلك. عزم فيرجيل على ألا يفتّش بعيداً لئلا يوقظ شكوك صديقته. حضر النادل إلى طاولتهما، والمؤشّر مسلّط على دفتر الطلبات. ادّعى فيرجيل بأنّه ليس جائعاً. ألحّت فوستين عليه. طلب ثلاث زجاجات من البيرة. ألغت صديقته الطلب الكحولي وطلبت

Twitter: @ketab_n

وجبة طعام. تنهّد فيرجيل حينما أحضر النادل وجبة بي. نها كهو. أي (فطيرة حلوى بالجانبون والقريدس ونبتات صويا) برقاقة محشوة مذهّبة ومنفوخة. تظاهر بأنّه يرغم نفسه على تناول شاكا (السمك المقلي)، و بي. ان تانغ (الحساء) ونيمس وشاو توم (قضبان قصب السكّر بالقريدس). أبهجتهما النكهات المتبّلة بالكمون ومرق السمك والفول السوداني المحمّص. حرِص على إخفاء متعته بتكشيرات متنوّعة.

وجدت فوستين أن فيرجيل لديه الكثير من الجرأة: لم يتشكّ ولم ينخرط في أحاديث مريرة. للمرّة الأولى في حياته، كان صديقها وقوراً في الألم وبلا مجاملة حيالها. دُهِشَت لذلك.

طيلة فترة تناول الطعام، حاولت أن تتبادل معه الأفكار. وهكذا حظيت بحفاوة أن تتحدّث له عن آخر مشاجرة لها مع صديقها. لا شيء يعزّي العازب أفضل من حكايات الأزواج. فردياً، كان فوستين وصديقها مغربيين. أمّا معاً، فكانا إعلاناً مقنعاً لاستئصال الأسْهَر ورباط القرون. كانت التركيبة التي يصوغانها لا تترك سوى القليل من آثار الكيانين اللذين كانا عليهما قبل أن يندمجا (في العالم الغريب للعلاقات العاطفية، الاندماج يؤدي إلى الانقسام).

كانت الرسالة التي توجّهها فوستين إلى فيرجيل واضحة: الحياة الزوجية جحيم. إذا كانت هناك فعلاً نهاية للتاريخ، فهي ليست بسبب تسلّم نابليون للسلطة، مثلما يعتقد هيغل، ولا بسبب سقوط جدار برلين، مثلما يعتقد المثقفون المحافظون، وإنّما بسبب سيادة الحياة الزوجية: أنت على سكّة حديد، سيكون الحدث المقبل في

Twitter: @ketab_n

حياتك هو موتك ودون إخطار. أهدرت فوستين طاقة كبيرة في إقناعه ببطلان الحبّ.

انتهى العشاء بمشروبٍ طبيعي، متعدِّد الألوان ومسكّر بعصير النبتات وبذور الصويا وحليب جوز الهند. دفعت فوستين الحساب. كانت السهرة رائعة.

قوانين دولية، نوعٌ من اتفاقية فيرونا، تحمي القلوب المنكسرة. تلقيّا مساندة ماسونية قويّة. كلّ مساء، يتكفّل أصدقاء فيرجيل به، يتناوبون على رعايته، يخرجونه، يطعمونه ويدلّكونه. يُدعى إلى المسرح والسينما وحفلات التدشين وحفلات الكوكتيل. كان يستحيل عليه أن يقبل كلّ العروض. سريعاً جداً، تحدّث إليه وسطاء عن نساء مثيرات.

لم تكن الحياة قطّ بهذا الجمال: كان يستفيد من تأثيرات الانفصال دون مساوئه. خلال إخفاقاته العاطفية السابقة، منعه شقاؤه من الاستفادة من التعزية المرتبطة بها. أدرك فيرجيل بأنّه حتى يستمتع بالشفاء، من الأفضل ألاّ يكون مريضاً.

تحت رحمة الأحاديث، تبيّن له أنّ لا أحد من أصدقائه قد تكلّم مع كلارا. اعتقد بعضهم أنّهم قد صادفوها في حفلة مود، ولكن لا أحد تذكّرها. كانت هناك بالتأكيد ولكن لا أحد قال عنها المزيد. لم تكن جزءاً من حلقة معارف فيرجيل. فلم يجازف بالكشف عن نفسه.

دعته ناديا لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في نورماندي في المنزل

Twitter: @ketab_n

الريفي لوالدَي خطيبها. كان فيرجيل بالعادة يكره هذه الزيارات البعيدة عن كلّ حضارة مع أفراد لا يعرفهم وقد لا يحبّهم. كانت الحياة الاجتماعية ترعبه والأحاديث الخالية من المفاجآت حول المواضيع القسرية ترهقه. لم يكن لديه أيّ شيء جديد ليقوله حول السياسة أو الجنس أو الطقس ويتجنّب كشف أفكاره الحميمية أمام أناسٍ غرضهم الوحيد أن يعرضوا أفكارهم الخاصّة. ولكن لأنّه لم يشأ أن يُسبّب الحزن لناديا بمنعها من تعزيته، وافق على مرافقتها.

مساء الجمعة، صعد إلى الشاحنة الصغيرة الخضراء اللون المزيّنة بالمجسمات اللاصقة (أزاهير، حيوانات، فرق الروك) لخطيب ناديا. كانت المقاعد من الإسفنج وليس لها مساند رأس وتفوح رائحة قيء قديم من قمرة القيادة. لا شكّ أنّ المركبة لم تخضع أبداً للفحص التقني وكان السائق ينتمي إلى فئة لا تحترم مسافات الأمان وحتى فيرجيل دُهشَ حينما وصلوا بعد ساعتين ونصف أحياءً إلى هولغات. عرّفته ناديا على أصدقائها في عطلة نهاية الأسبوع. كانوا ثمانية أشخاص في البيت الفسيح. تنزّه فيرجيل على الشاطئ قبل العشاء.

جرت الزيارة على نحوٍ مختلف عمّا كان يخشاه. لم يُفرَض عليه أيّ شيء. لم يرفع الأطباق عن الطاولة ولم يغسلها. أمضى الكثير من الوقت على الأريكة، مستغرقاً في قراءة رواية، أمام المدفأة. كان الوحيد الذي اختار الموسيقى (كانت هناك قارئة أسطوانات قديمة ومجموعة من أسطوانات مغبرّة ومثيرة لكينغ أوليفر وبيكس بيدربيك). تذوّق نبيذ بورغونيه الفاخر (من ماركتي مونتراشيه

Twitter: @ketab_n

ورومانيه كونتي) وتناول أطيب الأجبان (كامومبير من الكلفادوس، ليفارو، وبون ليفيك). لم يبذل أي جهد للمشاركة في النقاشات ولم يتجرأ أحد على معارضته حينما أطلق أحكاماً قاطعة حول هذا الفيلم أو ذاك الكتاب أو حينما أبدى رأيه، على غرار كينز، المؤيّد للقتل الرحيم للواردات وإلغاء الميراث. يردّ على سؤالٍ بتنهيدة أو بهزّة من الكتفين دون أن يُهان أحدٌ. أُعطيت له بالترتيب القطعة الكبرى من التارت بالتفاح والكشمش والرقاقة المحشوة الغنية بالزبدة والسكّر.

تلاشى كُره فيرجيل للبشر. اكتشف أنّ ثمّة فائدة للجنس البشري: أن يكون ساهراً على راحته وخدمته.

Twitter: @ketab_n

مساء الأحد، لدى العودة إلى باريس، تنزّه فيرجيل في حيّه (راضياً، متعباً، شبعان، وقد زاد وزنه بضعة كيلوغرامات وكست طبقة رقيقة من الملح جلده). أراحته أضواء حوانيت شارع دونكيرك والسينما الوحيدة المتبقية للأفلام الخلاعية والمقاهي والمشارب. كانت السهرة تسير نحو نهايتها ويعود زوجان إلى بيتهما أو يتشاجران، وتزدحم سيارات الأجرة وينظّف الكنّاسون الأرصفة.

انضمّ إلى آرميل في مقهى تيرمينوس نورد. كانت ترتدي بنطلون جينز أزرق غامقاً وقميصاً أبيض اللون مشدوداً ومقوّراً وبلوزة ناعمة مقوّرة من الميرينوس بلون الصوف وسترة من الصوف الأسود اللون. كانت النساء وألبستهنّ تُسحر فيرجيل. يجعلنه يفكّر في حربايات يفتّشن أبداً عن اللون الذي يتيح لهنّ الامتزاج بالعالم. هذا البحث الدائم عن مظهرٍ جديد يجعلهنّ عصيّات على الإمساك بهنّ.

لا يحتاج الرجل إلى التخفّي ولذلك لديه القليل من الثياب: يتشبّث بما لديه. يعرق الرجل في ثيابه ولكن العالم يعرق في ثياب المرأة. طلب فيرجيل كأساً من آلمافيفا وطلبت آرميل كأساً من جيفري-شامبرتان.

Twitter: @ketab_n

قال فيرجيل:

- هذا أمرٌ سخيف ولكنني لم أكن قطّ بهذه السعادة.

سحبت آرميل ورقةً من لعبة التاروت ووضعتها أمامها على الطاولة. كانت لعبة جميلة مزخرفة بحروفٍ هيروغليفية. أدارت الورقة: راهبٌ يحمل ميزاناً.

شرحت آرميل أنّ التقاليد كانت تعتبر لعبة التاروت انحرافاً لكتاب الموتى المصري، كانت تعود إلى أزمنة غابرة. وردّ عليها فيرجيل أنّ مقاومة الزمن لا تبرهن في أيّ شيء على صحّة فكرةٍ والحماقات المتنامية على مرّ قرون. زيّنت آرميل هجومها بذِكر أفلاطون (فيدر) وسيشرون (في فنّ التنبّؤ) اللذان كانا يؤمنان بالتنجيم. حسب رأيهما، توصّل بعض الأشخاص إلى حقائق مخفية وكفنانين فكّوا رموز العالم. كانت تلك حالة آرميل. كانت لدى آرميل الحسّاسة والملهمة مواهب رفيعة في المراقبة والاستنباط. كما في أحلام اليقظة، كانت تفكّ رموز الأرواح.

كلّما كان فيرجيل يجد نفسه في موقفٍ صعب، يسعى للاستعانة بمواهبها النافذة للعقل. ولكن شريطة أن يمنح مصداقية لهذه الشعوذة. كان يخشى من وضع صديقته في مأزق إن لم تتحقّق التنبؤات وأن يضع نفسه في مأزق إن تحقّقت. مهما يكن من أمر، كانت آرميل قد أخبرته بأنّه من المستحيل ممارسة التنجيم مع شخصٍ قريب، لأنّ المشاعر تشوّش التفسير.

إذا لم يكن فيرجيل يؤمن بورق التاروت، فقد كان بالمقابل لا يتردّد في الاستعانة بدهاء آرميل. سألها رأيها حول الموقف.

Twitter: @ketab_n

- في الحالة المثالية، لا ينبغي أن ترتبط السعادة بالظروف الخارجية.

جلب النادل النبيذ وطبقاً صغيراً من الفول السوداني المملّح.

قال فيرجيل وهو يقرض حبّة منها:

- أنا أتدبّر أمري كما أستطيع.

- أنا واثقة من أنّك تستطيع أن تتدبّر أمرك على نحوٍ أفضل.

وضعت حزمة مفاتيح على الطاولة. خلال لحظة، نظر فيرجيل إلى المفتاح الصغير لصندوق الرسائل، مفتاح الأمان والمفتاح الضخم المذهّب. أخيراً فهم الأمر. كانت آرميل قد اشترت المكتب الذي تنوي أن تمارس فيه نشاطها المخالف للعقل. كان ذلك مشروعاً يعود إلى سنوات خلت. حدث شيءٌ إيجابي في حياة صديقته وهذا ما غمره فرحاً. غادرا المقهى، متأبطين.

كان المكتب في الطابق الثالث من مبنى ذي جمالٍ كلاسيكي مطلّ على قناة سان-مارتان.

لم يتخيّل فيرجيل أنّ آرميل كانت تكسب دخلاً بهذه الوفرة. طيلة ست سنوات، وفّرت الأجور (المدفوعة غالباً في الظلام) التي تقبضها لقاء الظهور عارية أمام عدسات المصوّرين. لم يكن من العجب أن ينتهي الأمر بجمع مبلغٍ من المال.

لم تكن آرميل قد اشترت مكتباً فقط: كانت شقّة مجاورة تشكّل أيضاً جزءاً من الجائزة. شقّةٌ مكوّنة من صالون ومطبخ وحمّام ومغاسل وغرفتين. ينفتح مدخلها على بهوٍ مفروشٍ بأريكةٍ وعدّة كراسي صغيرة (قاعة انتظار، شرحت آرميل). كأن ضوء الشمس

Twitter: @ketab_n

يرشح من كوّة. عُلِّقت على الجدران صورٌ ونقوش ورسومٌ لها علاقة بعلوم السحر والتنجيم. كان بابٌ ينفتح على المكتب وآخرٌ على الشقّة. وكانت أرضية الصالون من الخشب المقشّر. كانت الغرفة تحتوي على صندوقٍ ضخم (وقد وضعت فوقه كتبٌ وشمعدانات)، وبوفيه وحمّالة معاطف ذات أذرعٍ عنكبوتية. وكانت مكتبة من الفونت تغطّي الجدران؛ وقد صُفّت فيها بعض الكتب، ولكن معظم الرفوف كانت فارغة. كان السحر الأساسي للمطبخ يكمن في بلاطاته الكبيرة التي تمثّل صور البروج. كانت الغرفتان مفروشتين بأثاثٍ من خشب الأسَل. لم تكن الرفوف والأدراج تحتوي إلا على القليل من الأشياء، إذ كانت آرميل قد نقلت محتويات غرفتها الإسبارطية الصغيرة ذات العشرة أمتار مربّعة إلى شقّة تكبرها بعشرة أضعاف.

أمّا المكتب، فقد كان مزيّناً على نحوٍ باذخ: كان دهاناً قرمزياً يغطي الجدران ومرآة فينيسية مثبّتة قبالة النافذة وصورة لأورفيوس معلّقة قرب المكتبة.

كانت آرميل تستقبل زبائنها على طاولة مغطاة بقماشٍ مشجّر. توجد على الطاولة عظيمات وحلقة ذهبية ممرّرة في خيطٍ من الحرير وكرة من الكريستال تشبه عيناً ضخمة. يُتيح صندوقٌ مفتوحٌ بالقرب من النافذة ظهور أشياء قديمة تُستخدَم في ممارسة التنجيم وعلى علاّقة مثبّتة على قاعدة عمود، تتدلى بزّة آرميل وهي عبارة عن ثوبٍ أسود وخبّازي ووشاحٍ موشّى بقطعٍ صغيرة من مرآة مهشّمة. كانت كتب أقدار وطلاسم وكراريس لقراءة الكف مرتّبة في المكتبة؛ ولوحات مبهمة مرمية على الأرض.

Twitter: @ketab_n

نزل فيرجيل لشراء زجاجة شامبانيا من البقّال في شارع ريكولت المتقاطع مع القناة. اكتشف أنّه لا يحتمل الشرب، فنقرا كأسيهما الفارغين ببعضهما. كان فيرجيل فخوراً بصديقته: فقد خلقت بالصبر والمنطق حياةً. بعد أن ضمّها إلى صدره واشتمّ رائحة الياسمين من شعرها، تركها تهتمّ بآخر تفاصيل ترتيب بيتها. سار على طول قناة سان-مارتان صاعداً نحو الشمال. كانت الشمس تميل وتضفي الألوان على القناة قرب مترو جوريس. جلس على حافة القناة. تشوّشت صورة وجهه على صفحة الماء تحت ضربات قطرات المطر المتقطعة.

Twitter: @ketab_n

ما أن فتح فيرجيل باب شقّته، لاحظ غياب الضوء الأحمر الصغير للهاتف. ضغط على الزرّ الفاصل للهاتف: فقد كانت الكهرباء مقطوعة. كان قد مرّ أسبوع على طلبه إلغاء الاشتراك. لم يجد في نفسه الشجاعة لشرح شفائه المفاجئ لشركة الكهرباء. عثر على شموعٍ تحت المجلى. أضفت ألسنة اللهب جانباً قوطياً على الشقّة.

ارتجّ السقف. كانت الجارة التي تسكن الشقّة التي تعلوه تستقبل زبوناً. رغم العدد الكبير لأعواد الثقاب التي ضحّى بها لم ينجح فيرجيل في إيقاد الشمعات الرطبة. حينما توقّفت نوابض سرير الطابق الرابع عن الصرير، صعد إلى الطابق. فتحت جارته الباب وهي ترتدي روب حمام أبيض اللون مع وردة حمراء مطرّزة على صدرها، وقد غطّى العرق جبينها وفي يدها علبة كوكا لايت. لم تكن لديها شموع. ألحّت على أن تعيره خوذة كشّافة قديمة مزوّدة بمصباحٍ جبهي.

ما أن جلس فيرجيل في أريكته، وضع الخوذة على جمجمته وربط الحزام أسفل ذقنه وأضاء المصباح. أنار الضوء المكتبة. ما أن حرّك رأسه حتى تنقّلت الحزمة الضوئية. أغلق هاتفه النقّال. شعر بتعبٍ شديد.

Twitter: @ketab_n

أمام أصدقائه، كان يتظاهر بأنّه الرجل التعيس دون أن يكون بالفعل كذلك، وهذا ما جعل أحزان حبّه الغابرة مضحكة. وهو يقلّد سلوكه المعتاد، عرف أيّ شخصيّة كاريكاتورية كانت له: متأفّفٌ دائماً، يردّد الشكاوى نفسها ولا يُخضع نفسه للمساءلة. كان يشكر كلارا على منح هذا الوحي ويغتاظ كثيراً من تمثيل دور المحبَط الذي يبدع فيه. كان أقلّ سعادة ولكنّه يرغب في الاستمرار في هذا الاتجاه. دون أن يتوقّع ذلك، حلّ الانزعاج تدريجياً محلّ عذوبة التعزية. لم يكن مخلوقاً للكذب. ثمّ أنّه لم يكن يحبّ الطريقة التي يتحدّث بها أصدقاؤه عن كلارا. لم يكونوا يعرفونها. كانوا جائرين حيالها. أمضى فيرجيل أسبوعاً خيالياً ولكنّ التمثيلية الهزلية لم تعد تسلّيه.

أخذ مرطبان الكرنب المحفوظ من خزانة فوق المغسلة. لم يكن قد تبضّع منذ زمنٍ طويل. كان ذلك أوّل مساء منذ أمدٍ طويل يجد نفسه وحيداً ويتناول العشاء في بيته. فرش المائدة على الطاولة المنخفضة أمام الأريكة. غرز شوكته في علبة الكرنب وجلس قبالة التلفاز. أنار مصباح خوذته وجبته الرديئة وعكسها على الشاشة الفضية. أكل على وقع صيحات الفسق والفجور من حوله. امتزج الكرنب المختمر مع اللحم الرديء في فمه وأعطى عصارة حامضة وباردة ولكنّه لم يعر اهتماماً لذلك.

نهض فيرجيل وتجوّل بحثاً عن شيءٍ لا يعرفه. كشف الضوء المثبّت على جبينه أجزاءً صغيرة من شقّته وكأنّه يكتشف كهفاً مغطّى برسومات حجرية. كان من غير الوارد أن يمضي السهرة عند صديقٍ لكي يسمع كلمات التعزية التي لا تُطاق. قرر أن يخرج في جولة.

Twitter: @ketab_n

وكأنّه أراد أن يكون بصحبة أحد، فصل جهاز الهاتف وضمّه إلى صدره. نزل فيرجيل إلى الشارع وجلس إلى طاولةٍ في مقهى تيرمينوس نورد. كان هناك زبائن متعبون ينتظرون قطارهم. بعد أن جلبوا له منقوعاً، أوصل الرجل الشاب جهاز الهاتف بمأخذ الكهرباء تحت المقعد. ضغط على زرّ الرسائل المحفوظة.

لسببٍ غامض، مسّه صوت كلارا. كان بحاجة إلى أن يصغي إليها.

ظلّ جهاز الهاتف صامتاً. ضغط فيرجيل من جديد على الزرّ. غرز أصبعه الزرّ البلاستيكي الأسود. لم يحدث شيء. أدرك أن لا أمل في ذلك: كان مهندسٌ مجهول قد قرّر أن لا يُحفَظ الأرشيف سوى لأسبوعٍ واحد. شاركت التقنية بنفسها في المؤامرة. اختفت كلارا أكثر. كان الدليل الوحيد على وجودها يتلاشى. تمنى فيرجيل لو يمتلك الشجاعة على أن يرمي جهاز الهاتف أرضاً وأن يهشّم البلاستيك تحت قدميه. كانت اللوالب لتتناثر وليدحرج الشريط الممغنط الرقيق كأحشاء حيوانٍ نافق.

فتر المنقوع. اشتاق إلى كلارا. اشتاق إلى تلك المرأة التي لا يتذكّرها. لأربع وعشرين ساعة، كان قد اعتقد بأنّ لهما حكاية مشتركة، وتخيّل أن حبّهما صادق. ثمّ لأسبوع، تظاهر بأنّه يبكي فراقهما. تبيّن له بذهول أنّ اكتشافه بأنّهما لم يكونا على علاقة لم يلغِ تعلّقه بها. وكأنّ تمثيله لدور صاحب القلب المحطّم قد حطّم قلبه فعلاً.

Twitter: @ketab_n

نمضي حياتنا في التشبّث بأناسٍ يسهل الوصول إليهم، بأناسٍ يثيرون انتباهنا بصخبهم، بينما يتنحّى آخرون جانباً في الظلّ. ولكننا لا نبذل جهداً للوصول إليهم. كان فيرجيل قد التقى بامرأة ولا يتذكّرها. لا أحد يتذكّرها وكان ذلك يحبطه.

كانت لكلارا صفات شبح: لم يكن لدى فيرجيل أدلّة على وجودها وكانت، بطريقةٍ ما، تلاحقه. كلمّا تقدّم به السنّ اعتبر الأشباح حقيقة لأنّها تمنح للعالم معنى. بدا له أنّ فهم الكون والعلاقات الإنسانية من دونها وهمٌ.

اتّصل الرجل الشاب ببعض الأصدقاء وسأل إن كان أحدهم قد التقط، خلال سهرة مود، صوراً أو صوّر فيلماً. كلا، على الإطلاق، لم يكن أحدٌ قد فعل ذلك.

ذرع شقّته الصغيرة طولاً وعرضاً. جال على الغرف بنزقٍ. لكي يُشغل نفسه فقط، وضع فردتي حذاءه الإنجليزي فوق قالبهما ولمّعهما.

كان طبيب عيادة التصوير قد ترك له الصور الإشعاعية. أخرج فيرجيل نسخ الصور من المغلّف المطبوع بشعار التصوير الإشعاعي.

Twitter: @ketab_n

كان دماغه مقسّماً إلى ثماني قطع كما لو أنّ جزّاراً قد فرمه بسكّين. ثبّت الصور الإشعاعية على النافذة بشريطٍ لاصق. خفت النور في الشقّة، بعد حجب ضوء مصابيح الشارع والقمر. أنارت الحزمة الضوئية لمصباح خوذة فيرجيل الصور الإشعاعية. كانت كلارا تقيم في مكانٍ ما منها. كانت ذكرى المرأة الشابّة تختبئ في تلك التلافيف، في تلك الظلال وفي تلك الكتل الهلامية. ومضت شذرات ذهبية في محيط الخلايا العصبية ونقاط الاشتباك العصبي. قرّب فيرجيل وجهه. لامس بطرف أصابعه حواف المادة السنجابية.

وإن لم يعلّل ذلك لنفسه، شعر فيرجيل بميلٍ نحو كلارا. همس له حدسه بأنّه قد تفاهم معها خلال لقائهما القصير في حفلة مود.

ظهر قلقه واضطرابه على جسده الذي أرهقه. فقد تشنّجت عضلاته وآلمته مفاصله. شعر كما لو أنّه قد أبحر منفرداً لعشرة أيام في بحرٍ هائج. عاد إلى درسه في اليوغا. كانت قاعة الرياضة في شارع الجمهورية خاوية وباردة. في تلك الساعة المتأخرة، لم يكن هناك الكثير من الناس. أعجِب فيرجيل بجوّها الشبيه بجو مصنع. أراد مكاناً لا شخصياً يستطيع أن يرتاح فيه من نفسه ويتجوّل بسروالٍ قصيرٍ أزرق وقميصٍ أسود دون المجازفة بالانخراط في حديثٍ مع شخصٍ ثرثار.

Twitter: @ketab_n

في معظم الحالات، يكون البشر مزوّدين بالمناعة الفعّالة جدّاً لبلوغ الحبّ. يرغب جزءٌ منا في الجريان في عذوبة علاقة رومانسية، ولكنّ هذا الجزء هزيل ويرزح تحت وطأة الأضداد. بعكس الفيروسات، لا ينمو الحبّ الحقيقي إلا بفضل الأشياء الفاقدة للحياة: كلّما كانت خطط قلبنا أكثر موتاً، كلّما حظيت بفرص النجاح. التماثيل والأعمال الفنية والمدن القديمة هي وسيلتنا الوحيدة لمعرفة بهجة المشاعر الخالدة.

كان بعض أصدقاء فيرجيل متزوجين وبعضهم الآخر على علاقة مصاحبة. وتجاوز الجميع مرحلة التجارب العاطفية وينتظرون بودٍّ ووفاء أن يستقرّ فيرجيل على علاقة دائمة. ولكنّ فيرجيل لم يكن مقتنعاً بتقليدهم.

للوقوع في الحبّ نتائج وخيمة. نخطّط لمشاريع مستقبلية، ونقيم معاً؛ وأخيراً، ذات يوم، يولد أطفال. وبالتالي، بسبب الأجار في باريس، يتعرّض الزوجان لخطر الاختفاء في الضواحي.

بحبّه لامرأة، جازف فيرجيل بأن يخسر حبّه الكبير، باريس. يمكن تفسير تعلّقه بباريس بسهولة. حينما يعرف المرء التصحّر

Twitter: @ketab_n

الثقافي والإنساني والجمالي للمدن الصغيرة في الضواحي والمقاطعات، تكون باريس واحة. يجب ألا يكون المرء قد ترعرع في باريس لكي يقع في حبّ هذه المدينة، مثلما يجب أنّ يكون المرء فقيراً لكي يقدّر قيمة المال. أمضى فيرجيل شبابه ظمآن وكان بحاجة ماسّة إلى أن يعيش قرب نبعٍ.

لا شكّ أنّ الحياة في باريس مكلفة ومقلقة وأقلّ شعبية وحركة المرور فيها صعبة والهواء ملوّثاً. ولكنّها تبقى المدينة التي فيها أكبر عدد من دور السينما والصيدليات في العالم. علاوة على ذلك، كان فيرجيل يحب المظاهرات المتواصلة للطلبة والعاطلين عن العمل والموظّفين والمتقاعدين ومَن ليست لديهم وثائق شخصية. بالنسبة إليه، لم يكن هناك أفضل وسيلة لاكتشاف العاصمة سوى الاختلاط بهذه الحشود المبتهجة والمناضلة. تجعله المواكب المزركشة والفوضوية فخوراً بمدينته. كان يحبّ تلك المواكب الشبيهة بفيضانٍ من الزهور الجميلة على الإسفلت والتي توقف السيارات وتعلّق الحياة العادية لأحياء كاملة وتُخرِج رجال الشرطة من عرباتهم. لم تكن باريس، مدينة المعترضين والمحتجين، مهد الانتفاضات الكبيرة، حقيقية وجميلة إلى هذه الدرجة إلا حينما كانت تقاوم.

قبل سبعة أعوام، عندما وقّع عقد عمله مع وكالة سفينغالي، أنهى عقد غرفته الملحقة في جادة ستراسبورغ. جاء والداه من بورج، حيث توقّف السيرك لبعض الوقت، ليساعداه في البحث عن مكان يبدأ فيه حياته كبالغٍ مستقلّ. كذب فيرجيل عليهما بشأن زيادة راتبه (زاد راتبه على نحوٍ مضحكٍ بحيث يخجل منه)، وقد زارا

Twitter: @ketab_n

الشقق الصغيرة غير الصحية في أحياءٍ راقية والشقق الصغيرة جدّاً والصحية في أحياءٍ فقيرة وعدداً من الشقق التي كان عليهم أن يسجّلوا الدور عليها ويعدّوا ملفات عبثية للتقديم عليها. بعد الكثير من خيبات الأمل، عثروا بعد جهدٍ جهيد على شقّة في شارع دونكيرك. لا شكّ في أن سمسار العقارات قد عانى كثيراً للتخلّص منه لأنّه لم يستأ حينما أفصح والدا فيرجيل عن مهنتهما. بعد أنّ تعب من البحث، وقّع فيرجيل عقد الإيجار. طمأن القرب من محطّة كبيرة شخصيته المصابة برهاب الانغلاق.

أعجبه الحي بتنوّعه. في هذا الجزء الشمالي من الدائرة العاشرة، كان العديد من الأجانب (الهنود، العرب، الصينيون، الأفارقة) يعيشون ويعملون. كانت هناك قارات في العمل بفضل هذه اللغات والعادات والألوان والروائح والأطعمة. كان فيرجيل يرى أنّ العالم يتحرّك هنا أكثر من أيّ مكانٍ آخر، تتصادم فيه الصفائح القارية وتتلاقى وتتراكب وتُحدث تحوّلات المشهد دون توقّف؛ فتظهر كثبان ووديان وجبال ومحيطات في الضمائر. كان الحيّ يجمع من بين غرائبه عنصرين مفارقين: عددٌ كبير من متاجر لوازم الأعراس ومثلها تقريباً من حوانيت الأفلام الإباحية. شكّلت الإباحية والرومانسية خلاصة ممتازة لمطامح الإنسانية. أحبّ فيرجيل الملامح الجغرافية والتخيلية لبيئته.

ولكن منذ انتقاله، رأى أنّ انسلاخاً يحدث. كان متعهّدو العقارات والسلطات العامّة يدمّرون منهجياً البناء المديني من خلال إعادة التدهين والتجديد وإعادة البناء. كانت الإيجارات ترتفع؛

Twitter: @ketab_n

ولذلك ينتقل الفقراء نحو الضواحي أو يعيشون في شقق صغيرة. طالبت جمعيات للمقيمين على ضفّة النهر بحضورٍ أكبر للشرطة وقدّمت عرائض ضدّ العاهرات والمتسكّعين.

لم يكن فيرجيل يتحدّث إلى جيرانه أو إلى تجّار حيّه؛ لم يكن لديه أيّ ميل إلى حياة الحيّ أو الاحتفالات الشعبية. يجهله المليونان الآخران من السكان ولكنّ المدينة بأكملها كانت له؛ كان يكتفي بالتسامح معهم. لم يكن بوسع المالكين والمتعهدين وموثّقي العقود وسماسرة العقارات والبوّابين أن يفعلوا أيّ شيء: لم يكن من الممكن نزع ملكية فيرجيل أو إخلائه من الشقّة. يتنزّه كسيّد الأماكن ومفاتيح المدينة في جيبه. كان في بيته على مقاعد الجادات، في الحدائق، على الجسور وفي العمارات القديمة، في حديقة ليون الصغيرة وعلى حرف جزيرة سان- لويس. يضع يده على حافة نافورة سان-ميشيل بإحساسٍ كأنّها تنتمي إليه.

كان أصدقاؤه يعيشون في الدائرة العاشرة والثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرين. كانت تلك باريس حياتهم اليومية ومقاهيهم ومطاعمهم ودور سينماهم مثلما يراودهم فيها الوهم بأنّ المال لم يغزو كلّ شيء في حين أنّهم كانوا يساهمون في زيادة ثمن المتر المربّع من خلال تأجير أو شراء شققهم الصغيرة. ينتمون إلى طبقة مثقّفة مفلسة ولا يزالون يتلقّون المساعدة من ذويهم؛ رغم أنهم لم يكونوا عاطلين عن العمل، كانوا يعملون في المسرح، في المتاحف، في إنتاج الأفلام الوثائقية وفي النشر الفني. لم يكن هناك أيّ شيء في العالم يجعلهم يتواعدون في أحياء باريس البرجوازية.

Twitter: @ketab_n

حينما وصل إلى محطة مونبارناس، وهو في الثامنة عشرة من عمره، قرّر فيرجيل أنّ باريس ستكون محلّ حبّه، لأنّه كان عليه أن يضع حبّه في مكانٍ ما. سوف لن تهجره باريس. كانت باريس حاضرة حينما يحتاج إليها. لم تكن باريس تستلزم الذهاب في عطلة على جزيرة فردوسية، على شواطئ مملّة للمرهم والشمس. كانت باريس تسخر من كونه لم يجلِ الأطباق لمدّة أسبوع، ولم يحلق ذقنه ويرتدي ثياباً رديئة. كانت باريس تحبّه.

Twitter: @ketab_n

استعادت الحياة اليومية دورتها. بدا هذا الاثنين أيضاً يوماً عبثياً وبدون حكاية كالعادة. كان قد انقضى أسبوعٌ على رسالة كلارا.

بدأ فيرجيل نهاره بكوبٍ من الشاي الأخضر، ثمّ تناوب على أقداح منقوع الهندباء. كان للشراب لونٌ أسود جميل وكان قد اعتاد على مذاقه.

كانت الألواح الكهربائية لا تزال معطّلة. فتح فيرجيل الثلاجة. تنفّس الصعداء لأنّه لم يشمّ الرائحة النتنة للبيض الفاسد والبندورة المتعفنة. كان اللبن قد تحوّل إلى جبن والمرطبات في العلب البلاستيكية قد انتفخت كمناطيد صغيرة بسبب نمو البكتيريا. لم يستطع الاستمرار في العيش وسط الظلام وعلى المشروبات الباردة. اتّصل بشركة الكهرباء وطلب منها أن يعيدوا التيار الكهربائي. شرحت له مستشارة خدمة الزبائن بأنّ الأمر ليس بسيطاً: فقد أُغلق ملفّه بسبب وفاته، وخُتِمَ وأُرسِل إلى قسم الأرشيف في غادلوب. كان على فيرجيل أنّ يقدّم شهادة طبية وينتظر نبش سجلّه من قبل لجنة لهذا الغرض. وقد يستغرق الأمر أسبوعين. وإلى ذلك الحين، لن يكون لديه من خيار سوى أن يستحمّ في ناديه الرياضي أو في بيت آرميل.

Twitter: @ketab_n

تبيّن له وهو يرتدي بنطاله بأنّه على الأقل لن يبرد. ولن تكون التدفئة ضرورية لبعض الوقت. فقد تأخّر برد الخريف بسبب الأطنان من غاز الكربون المنبعث في الجوّ من قبل السيارات.

قاد المزاج السيئ لفيرجيل وقلقه إلى ذكريات كئيبة. تذكّر بعض شتاءات طفولته حيث كانت التدفئة معطّلة والمياه الساخنة مفقودة. وقد أقسم ألا يعيش هذه الظروف ثانية.

ولكي يوقف فيض التأمّلات التشاؤمية، لجأ إلى تمارينه في اليوغا. ثنى ساقيه وأبطأ تنفّسه. بعد نصف ساعة، خفّت التوترات.

نزل وتناول فطوره في ماكدونالدز. لم يجد أفضل من عصير برتقالٍ حامض ومعجنات دسمة. ترك ظرف الشاي جانباً وشرب الماء الساخن. كان جاره على الطاولة، وهو رجلٌ قصير القامة يعتمر قبّعة غولف نخرها العثّ وله لحية لم يحلقها منذ أسبوعين ويرتدي قميصاً ملوّثاً، يأكل بطاطا مقلية ويشرب علبة صودا؛ ويضع يده على قطعة حلوى بالشوكولا كما لو أنّه يحميها. لم يكن فيرجيل قد اعترف بذلك لأحد، ولكنّه كان يهوى المجيء إلى ماكدونالدز. لم يكن مكاناً مريحاً ولا جميلاً، ولكنّه يشعر فيه بأنّه في بيته. لو أبحر هامنغواي إلى باريس اليوم، لما امتلك المال الكافي للذهاب إلى المقاهي التي كان يتردّد عليها في ثلاثينيات القرن العشرين ولكان الملاذ الوحيد الذي يستطيع الجلوس فيه لشرب فنجانٍ من القهوة والكتابة فيه هو ماكدونالدز. ليس هناك أيّ مكان آخر يمكن اللجوء إليه أثناء حرارة هذه الأيام بمبلغٍ زهيدٍ من المال. يعرفه الفقراء والطلاب وسكّان الضواحي؛ يفتحون فيه رسائلهم الإلكترونية

Twitter: @ketab_n

ويُراجعون فيه الامتحانات والدروس ويكتبون فيه؛ يقرأ فيه متسكّعون الجرائد المجانية وهم يتظاهرون بالشرب في كأسٍ مسترجعة على صينية. كانت فكرة مكان للتجديد بالنسبة إلى أناسٍ متواضعين قد تحوّلت إلى كاريكاتورٍ للمشروع الرأسمالي. ظلّ مطعم الوجبات السريعة المكان الحميمي الوحيد الحيوي والشعبي. كان ذلك محبطاً.

حينما دخل فيرجيل إلى مكاتب وكالة سفينغالي، أخبره موظّف الاستقبال أنّ سيمون ترغب في التحدّث إليه. كان فيرجيل قد اشترى للتوّ عدّة كيلوغرامات مشكّلة من اللبن الرائب (بالفواكه، بنكهة الفواكه، بالخمائر، بالحليب كامل الدسم، بدون مواد دسمة، بالصويا، بسكّر القصب، بالشوكولا). فالإلهام يحتاج إلى تغذية. الأفكار القليلة التي كان يمتلكها سابقاً لم تكن كافية للنجاح. كتب نصّاً قصيراً ربّما يُشاهد كثيراً على لوحات المترو أو في حالات أفضل يرويها ممثّل مبتسم في إعلان تلفزيوني: «اللبن الرائب رمز الحياة الإنسانية الساخرة: إنّه أبيض، عديم الطعم ومليء بالبكتيريا، ولكنّه أحد الأشياء النادرة الذي يشتهيه المرء ويستطيع في النهاية الحصول عليه».

دخل فيرجيل إلى مكتب سيمون بعد أن دقّ الباب الموارب.

قالت سيمون:

- هم يصرّون على موقفهم.

كانت تقصد بكلمة «هم» أصحاب الوكالة. كان فيرجيل

Twitter: @ketab_n

يصادفهم أحياناً في المصعد. زوجان يبلغان حوالي الستين من العمر. وقد لاحظ أنّ المرأة لا ترتدي سوى أطقم من ماركة توييد ذات ألوانٍ فاقعة؛ جيوبها مروحية الشكل ويزرّ السترة زرّ وحيد.

وضع فيرجيل عبوات اللبن الرائب على الطاولة. كانت سيمون ترتدي قميصاً فضفاضاً وقبّعة من القشّ يزينه شريطٌ أحمر وعصفورٌ طنّان محشوّ، وتنتعل خفّاً من الساتان الأسود المرصّع بلآلئ معدنية. وأمامها طبقٌ نحاسيٌّ من الفاكهة الغريبة.

كان فيرجيل يحبّها كثيراً. يحبّ وجهها وتعابيرها الجدّية المعبّرة عن اليقين والثقة. كانت سيمون تناهض الانتشار النووي وإتلاف الغابات وتدافع عن رأسمالية متحرّرة ذات وجهٍ إنساني.

إنّها تجعله يفكّر في امرأة مصابة بحمّى المستنقعات ولكنّها تناضل في جمعية للدفاع عن البعوض. في الوكالة، كانت النزاعات السياسية تبدو ككوميديا محبّبة يتواجه فيها المتنافسون دون أن يعادوا بعضهم فعلياً. وكان هذا المشهد اللائق يناسب هدوء فيرجيل. كان زملاؤه مرتاحين في ظلّ ستالين كما في ظلّ ريغان؛ ككلّ الشرفاء، لا بدّ أنّهم تكيّفوا مع أيّ نظامٍ كان. ويؤثّر هذا في فيرجيل لأنّ والديه وأصدقائهما كانوا على النقيض تماماً من هؤلاء الناس. وهو يحبّهم لهذا الأمر، لصلابتهم وحزمهم ولكنّه يتحسّر للعزلة والألم الناجمين عن ذلك.

لامست يده الفاكهة الغريبة. داعب التفاح الأحمر الصيني وثمار الكاكي والمانغا والجوافة والرمان. بعد تردّد، أمسك بقطعة فاكهة ونقلها من يدٍ إلى أخرى.

Twitter: @ketab_n

- إن منحتموني هذه الترقية، سأستقيل.

تفاجأ هو نفسه بحزمه. أربكه أن يعارض سيمون الساحرة، ولكنّه شعر بنشوةٍ غير معهودة وجارفة باكتشافه بأنّه ليس مرغماً على الإذعان للخطط المرسومة له. أحسّ بارتعاشات شابّ جانحٍ أثناء سرقته الأولى.

قالت سيمون بمنتهى العذوبة:

- فيرجيل، كن عاقلاً.

- لا أرى سبباً لأكون عاقلاً. لا شيء في عقد عملي يلزمني بذلك.

كان يطمح إلى الهدوء والروتين. كان أدنى تغييرٍ يعرّض الصرح الهشّ لحياته للانهيار. فكّر باللجوء إلى النقابات للدفاع عن نفسه. لماذا عليه أن يرتقي وظيفياً؟ سوف لن يسمح لأفكارهم عن الطموح أن تفسده. فهو يعمل لأنّ العمل وسيلة للعيش وليس للنجاح. أراد أن يشرح لسيمون بأنّه دخل إلى وكالة للإعلان جزئياً بسبب اعتياده على كسب اللغة لكي لا يتّخذه الشخص الذي يقف أمامه هدفاً. منذ سنوات دخوله إلى المدرسة، كان يروي قصصاً ويُضحك زملاءه لكي يتجنّبوه. ولكنّ سيمون لم تفهمه.

قالت له وهي تضع يدها على ذراعه:

- أنت تؤدّي عملاً ممتازاً.

قال فيرجيل وهو يغادر المكتب:

- لا أفعل ذلك عمداً. هذا يحدث دون قصدٍ منّي.

كان وفياً. في مكاتب سفينغالي، كأنّه في حديقة أطفالٍ،

Twitter: @ketab_n

يتلاعب بالكلمات والأفكار لكي يصنع شعارات؛ يروي حكايات، شخوصها مزيلات العرق والسيارات.

يحدث له أن يتجوّل في متحف الدعاية والإعلان، على بعد خطوتين من الوكالة، في شارع ريفولي. كانت النوافذ المطلية باللون الأسود والكبيرة كأبواب لا تسمح بتخمين كومة الأشياء والملصقات الموجودة في الخزائن. على طابقين، جرى تقديم متحفٍ للدعاية الحامية للمستهلك. كانت فكرة جيّدة للتذكير بأنّ عمر الدعايات لا يتجاوز عمر الزهور. أُعجِبَ فيرجيل بهذه الهشاشة. منعت عبثية المنتوجات أن تؤخذ على محمل الجدّ. كان الكثير من ضجيج (المال والرجال والاجتماعات) من دون نتيجة. كان هناك أمرٌ مؤثّر لخلق هذه الألعاب النارية.

على مرّ السنوات، لجأ فيرجيل إلى الدعاية بتجرّدٍ كأنّها مادة دراسية. قاده فهمه وملاحظاته إلى الاقتراب من صنف «فنون العمارة سريعة الزوال» وقد بدت له ثلاثة نماذج متحدّرة من هذه المدوّنة الفنية مناسبة لهذا النشاط المهني.

1. كريستال بالاس خاصّة جوزيف باكستون: هيكل ضخم مسبق الصنع من خمسمائة متر طولاً، من الحديد والزجاج، بني في هايد بارك عام 1851.

2. في عصر النهضة، اللوحات الإعلانية الخشبية المطلية التي كانت تُلصَق على واجهة البيوت (القبيحة أو المبتذلة جدّاً) أثناء مواكب الزواج الأميرية أو المواكب الدينية.

3. منصّات النعوش والمصلّيات النشيطة الأخرى، والآثار

Twitter: @ketab_n

الفنية التي كانت تختفي في ألسنة لهب تحريق المتوفّى والذي يجده المرء في غالبية الثقافات.

كان الإعلان يوصل هذه الحقائق الثلاث: عرض متعجرف للثراء وحسن التصرّف، سرابٌ ومحرقة مدمّرة وجنائزية. كان فيرجيل يحبّ تعددية المعاني هذه. من شيءٍ مبتذلٍ جداً ظاهرياً، وجد مادّة للتفكير وللحلم. ساهم ذلك في جعل شرطه ممكن القبول. خلال سنوات، كان عمله وسيلة مناسبة للحصول على معارف. بذريعة البحث عن أفكار لإعادة إنتاجها والإلهام لتطوير مساحيق غسيل وشفرات حلاقة وحفاضات الأطفال، اطّلع على روايات وكتب فنية وأفلام وأسطوانات ممغنطة، وحفلات وعروض مسرحية وحفلات سينمائية.

ما أن أصبح في قاعة الإبداع، وضع فيرجيل عبوات اللبن الرائب على الطاولة ونضدّها على هيئة الهرم المدرّج للملك زوسر. بُني الهرم الأصلي قبل خمسة آلاف عام من قبل إمحوتب. دار فيرجيل حوله ونظر إليه من الزوايا المختلفة. كان يُفترض بالدرجات أن تسمح للملك بالصعود نحو السماء. وضع فيرجيل عبوة لبن في قمّة الهرم.

Twitter: @ketab_n

كان النهار في الوكالة رهيباً. لم تكن الساعات تمضي. كما لو أنّه تعطّب بغياب كلارا، شعر فيرجيل أنّ الروابط بين ذراته تتفكّك. تحت الضوء الخفيف للنافذة المزجّجة، في ظلّ أهرام عبوات اللبن، رسم بالحوّار على اللوح الأسود، أبقاراً بنظرة ساخطة وقرون ضخمة منتصبة نحو السماء وضروعٍ ظاهرة. على صوت ألبومٍ لكيني أركانا، تصفّح مجلات وكتب مقطوعات شعرية قصيرة ورمى كريات من الورق في السلّة على غرار لاعب كرة سلّة في الدوري الأميركي. بالعادة، يكفيه أن يتظاهر بأنّه يعمل لكي يشرع في العمل. ولكن لم يصدر ما هو مفيد من قلم بيك ذي السنّ الأسود. تناول أنواعاً مختلفة من اللبن لعلّه يوقظ الوحي ولكنّه لم ينل سوى تقزّزٍ عميق.

الإعلان ليس فنّاً، ومع ذلك، أحياناً، حينما تكون لدى الشركاء الذين يقدّمون رأس المال أفكاراً متحررة، يمكن إبداع أشياء صغيرة جميلة لا تكون حمقاء. ولكن منذ رسالة كلارا، أو منذ تهديد ترقيته (لم يكن يدري أيّ حدثٍ غيّر حالته)، فقد فيرجيل كلّ رغبة في هذه الإبداعات الصغيرة. أمّا زملاؤه، فلم يكونوا يضيّعون دقيقة واحدة. كانت الأحاديث وفتح علب الصودا والهتافات تشكّل

Twitter: @ketab_n

موسيقى شبيهة كثيراً بأغاني العمل. لو أنّ زملاءه راجعوا أحد القواميس المصفوفة على علب معكرونة لادوريه وعلب حلوى تورون الإسبانية والبراوني، لاكتشفوا أنّ الاستهلاك يعني اشتقاقياً الهدم: دفْعُ شيءٍ ما إلى هدمه باستخدام مادته. تساءل فيرجيل إن لم يكن، باختياره هذه المهنة، قد أنجز، مثل نيتشايف الخجول، عملاً عدمياً لأنّه، بهذا، كان يشارك في الإبادة العامّة بطريقة أكثر فاعلية مما لو أنّه يلقي قنابل. كانت للأفكار التي يعثر عليها نتائج. فالاستهلاك يتزايد والمعامل تعمل بانتظامٍ، هذا يعني أنّ المرء يصنع نفايات على شكل علب تغليف وأكياس بلاستيكية ومنتجات سامّة. تتسمّم الأرض بحبور ويذوب الجليد القطبي وتختفي الجزر المرجانية وتتزايد الكوارث وتغيّر شحّة النفط وسعره كمواد أوّلية مبدّدة التوازنات السياسية وتخرّبها.

هكذا، من خلال عمله، كان فيرجيل يطبّق أحد مبادئ مؤلّف تعاليم الكنيسة عن الرجل الثوري: إشاعة الفوضى لتغيير المجتمع. التدمير ضروري لنشوء عالمٍ جديد.

كان يختنق. وكان من المستحيل فتح النافذة. عبثاً، بحث عن علبة الحبوب المهدّئة في جيوب سترته. شعر بأنّه في خطر، وأنّه محاصرٌ من كلّ الجهات. تعرّض عقله لهجمة من مشكالٍ للصور والقبور والمقابر والقنابل المرمية من الطائرات وقوات الكتائب وإطلاق النار ومعسكرات وأسلاك شائكة، ولوحة غيرنيكا وعائلات باكية وأشباح، غادر قاعة الإبداع وسار محاذياً لسور الممرّ وصعد سلّم الخدمة. مرّ من تحت لوحة المنع الممتدة عبر الدرج المؤدّي

Twitter: @ketab_n

إلى السطح. كان البوّاب قد أعطاه المفاتيح الاحتياطية لكي يسقي له مزروعاته من الزعتر والنعناع والكرّاث أثناء غيابه.

حينما انفتح الباب الحديد، بدت السماء وخفّ الثقل عن صدر فيرجيل. كان الهواء في ذلك العلّو أيسر على الاستنشاق؛ كما كان هناك ضجيجٌ أقلّ ولم يكن أحدٌ على الإطلاق ينظر إليه.

سار فيرجيل متنفّساً بعمق لاستعادة هدوئه. جلس القرفصاء ولمس التراب الرطب للأصص المستطيلة الكبيرة. قطف ورقة نعناعٍ ومزّقها. لمعت قطرة من العصارة العطرة على إبهامه. وضع الوريقة في فمه ومضغها. مرّت في ذهنه صورٌ للشاي بالنعناع وآرميل ولعبة تاروت ووالديه.

استند بمرفقيه إلى حافّة السطح ليتأمّل باريس. كهاربةٍ من فيلمٍ قديم لمصاصي الدماء، غطّت غمامةٌ المدينة. في الأفق، اقتربت غيومٌ داكنة. لم يجد قطّ تلك الغيوم منذرة بالخطر. كان يحبّ العتمة والمطر وأحياناً البرق الذي يصاحبهما.

هبّت زوابع على السطح، تدحرجت أوراق الشجر الميّتة ووريقات وبقايا صغيرة ، وتلاعبت الريح بشعر فيرجيل. نقل أصيص الزعتر من مكانه ليكتشف علبة سيجار البوّاب، مغلّفة بمنشفة حمّامٍ مبلّلة ومتّسخة ومهترئة. أشعل سيجاراً صغيراً من ماركة بارتاغاس، سبق ودُخّنت ثلاثة أرباعها.

بُني هذا السطح أساساً كمهبطٍ للطائرات المروحية ولكنّ القانون الناظم الخاصّ بالطيران في العاصمة لم يسمح باستخدامه. كانت

Twitter: @ketab_n

طبقة رقيقة من الرغوة تغطّي الطلاء الأبيض لأرضية المهبط؛ وقد أحيطت بمطافئ حمراء اللون من كلّ الجهات؛ وعلبة تحتوي على مستلزمات إسعافات أولية ودليلٌ توجيهي وميكانيكي وأدوات إجلاء الركاب في حالات الطوارئ.

كانت فكرة هبوط طائرة مروحية في هذا المكان تروق لفيرجيل. تخيّل نفسه يتسلّق إلى داخلها. لن يكون الإقلاع هو الأصعب وإنّما العثور على مكانٍ للجوء إليه.

منحه النيكوتين شيئاً من الثمالة. جلس على الأرض وأسند ظهره إلى حرف السطح. كان الطرف المتوهّج من السيجار بين أصابعه يذكّر بفوهة بركانٍ حممه جاهزة للثوران؛ نفث السيجار وخرج الدخان الأبيض الكثيف من فمه وتلاشى في الهواء.

تتالت أفكارٌ وكأنّ عجلة تجرّها. هكذا أدرك أمراً مزعجاً جداً: باستثناء آرميل، كان أصدقاؤه يزعجونه. كان خلال عشاءٍ، أو حفلةٍ أو الذهاب إلى السينما، يودّ غالباً لو أنّه يقول «لقد سبق وخضنا هذا النقاش، ألا تتذكّره؟».

حتماً تأتي لحظة يكون لكلٍّ شخصٍ مكانه في مجموعةٍ. كان فيرجيل صبيّاً ساخراً وصاحب نزوات. اعتاد أصدقاؤه على اكتئابه الدوري وعلى العرض السنوي لغرامياته المأسوية والساخرة. يلعب هذا الدور ليكون مقبولاً ومحبوباً، محاطاً بأناسٍ يفهمونه، حتى يشارك في التخليد المطمئن للأشياء نفسها. كان أصدقاؤه أيضاً يمثّلون دورهم في المسرحية دون أن يسألوا عن نصّهم ولا عن شخصيتهم. لماذا لم يختفوا قليلاً، يا إلهي؟ ألم يروا أن أفضل

Twitter: @ketab_n

طريقةٍ للحياة هي أن يصبح المرءُ شبحاً؟ رغب فيرجيل أن يبقى على السطح وأن تختطفه واحدة من تلك الغيوم السابحة في الأفق. ربّما باختفائه يلتقي كلارا.

إلى تلك اللحظة، كان يحقد عليها. تأكّد من ذلك باندهاش، كأنّه اكتشف شوكةً ضخمة مغروسة في يده لم يلحظها إلى تلك اللحظة. تملّكه غضبٌ متصاعد. كان شعوراً غريباً بالنسبة إليه. أجل، حتى إن كان ذلك برعونة، حتى وإن كان لا يدري كيف يعبّر عن ذلك: كان غاضباً. لماذا تصرّفت بهذه الطريقة؟ بأيّ حقّ أفسدت حياته؟ ماذا استفادت من ذلك؟

أوشك السيجار على أن ينتهي. أشاع جمره الدفء في أصابع فيرجيل. كان فمه مليئاً بنثار السيجار وبالنكهات الحادّة والقوية كما لو أنّه قد أكل من أرضٍ زراعية وساخنة. رمى العقب الأسمر الضخم وتركه ينطفئ من تلقائه. كان القليل من الدخان لا يزال ينبعث من القشرة الملفوفة للسيجار.

متذرّعاً بصداعٍ، غادر فيرجيل الوكالة. شرب عبوة كبيرة من مشروب الطاقة في مقهى جان نيكو. كان هذا المقهى-المطعم يذكّره بالمؤسسات التي تردّد عليها مع والديه في طفولته. لم يفكّر فيرجيل بأيّ شيء. تحدّث معه صاحب المقهى. لم يفهم وهزّ رأسه. بدا عقله ولسانه مشلولين. كما لو أنّ ساقيه فقط يعملان، خرج ومشى.

لم يكن يحبّ ذاك الحي بحوانيته غير المفيدة وسياراته الكثيرة والصاخبة ومارّته. ها هي باريس التي يكرهها. ها هي باريس التي لم تعد باريس، وإنّما مركزٌ تجاريّ عملاق. كانت مكتبة ديلامان

Twitter: @ketab_n

ملاذاً. دخل إليها وتجوّل في ممراتها. كان السقف مرتفعاً والجوّ هادئاً والضوء خافتاً. وجد فيها عدداً من الكتب القديمة. داعب بيده رفوف الروايات. توقّفت سبابته على طبعة من رواية «قصّة المومياء» لتيوفيل غوتيه. كانت حالته أشبه بحالة عالم الآثار الذي وقع في حبّ الملكة توسرت المكتَشَفة في قبرها: حبٌّ مستحيل لامرأة غائبة. كان ينوي شراء الرواية، ولكنّه ترك الكتاب حينما التقت نظرته نظرة بائع. استبدّ به هلعٌ قديم. خشي أن يرفض أمين الصندوق نقوده، لأنّه ليس جديراً بالمتجر الفاخر، ليس جديراً بامتلاك المال واستخدامه كما يشاء. كما لو أنّه لا يزال طفلاً في حانوت مدينة مجهولة، يقبض على القطع النقدية الثمينة في جيبه.

خرج من المكتبة وصعد إلى الحافلة باتجاه محطّة الشمال.

لدى نزوله من الحافلة، لم يتوجّه فيرجيل إلى شقّته. دخل إلى المحطّة. أثارت القاعة الشاسعة والزجاجية انفعالاته. أعلن صوتٌ انطلاق قطارٍ إلى بروكسل. ركض رجلٌ على رصيفٍ. حاول فيرجيل أن يتبعه، أن يركض إلى جانبه، وأن يصعد حينما تبدأ الإشارة الصوتية. أن يغادر المدينة ويستأنف حياته في مكانٍ آخر. لم تعد مشاعره قويّة جداً حيال باريس. وبعد بضعة أيام، اعترف بشيءٍ لا يمكن تصوّره: وضعته صدفة ميلاده قرب مدينة أسطورية كبيرة وإلا كان من الممكن أن يكون في مدنٍ أخرى مثل برلين، لشبونة، ساو باولو، أو إحدى عواصم أوروبا الشرقية. حلم أيضاً بالريف، بمكانٍ لا تخنق فيه ضوضاء السيارات زقزقة العصافير وصخب عجلات

Twitter: @ketab_n

الدراجات الهوائية. بدت له باريس مثل إكسسوارٍ فاخرٍ يرنّ اسمه رنيناً جميلاً ويُلفَظ بسهولة.

أُغلِقت أبواب القطار. بدأت العربات بالتحرّك. ولأنّ القطار كان يبتعد متسارعاً، أدرك فيرجيل أنّه كفّ عن الحلم. عبرت الشمس الخريفية الواجهة الزجاجية للمحطّة. كانت مصافي مطاعم الوجبات الخفيفة تعمل بلا توقّف؛ وكان نثارٌ ناعمٌ من البنّ العربي يتطاير في الهواء. اشترى فيرجيل عبوة من مشروبٍ غازي وجلس على مقعدٍ قبالة طريق.

لأنّ المرء لا يمكنه أن يصبح سعيداً ولأنّه لا يكفّ عن المحاولة في أن يكون كذلك، قرّر مسبقاً، ولتجنّب الألم، ألا يسعى لإثارة انتباه أحد وألا يتحرّك. انقضى ذلك الزمان. سوف يغيّر شيئاً في حياته، لم يكن يعلم بعد ما هو، ولكنّه سيتصرّف.

Twitter: @ketab_n

ظلّ جالساً على مقعده يشاهد القطارات وهي تغادر المحطّة. بعد نصف ساعة، رنّ هاتفه. كانت آرميل تتهيّأ لاستقبال آخر زبائنها؛ عرضت عليه أن ينضمّ إليها في مكتبها. غادر فيرجيل المحطّة.

ضايقته الأضواء الحمراء للمطاعم والمصابيح البيضاء في الشوارع. تمنّى لو أنها انطفأت جميعاً. غضّ الطرف وسار محدّقاً في حذائه. أنعشت الحركة المنتظمة لخطواته طيلة المسافة تفكيره. غطّت كلّ خطوة قطعة بازل كبيرة لم يشعر بها إلا حينما انتهت. حينما فتحت آرميل الباب، كان قد اتّخذ قراره.

قال:

- سأذهب لألقاها.

كدلالة على كثافة أفكاره، ظلّ يُطرق النظر إلى الأسفل. رفعت آرميل ذقنه وقبّلته. أغلقت الباب وسحبت صديقها إلى داخل المكتب.

قال فيرجيل وهو يرفع يديه دلالة على العجز:

- أنا مشتاقٌ إليها.

Twitter: @ketab_n

- تشتاق إلى تلك الفتاة التي لا تعرفها؟

- أنا عاجز.

- تبدو محبّاً للقتال. يسرّني أن أراك هكذا.

عاملته آرميل بجدّية. كانت هذه إحدى مزاياها.

- أمضيت حياتي في تجنّب الهموم وكانت النتيجة كارثية. لماذا لا أجازف لمرّة واحدة؟

جلسا في المكتب. أخرجت المرأة الشابّة من رفّ في المكتبة زجاجة من خمر اللنغدوك من طراز سانلو وكأسين لهما قاعدة. شرب فيرجيل جرعة. حسّنت حرارة الخمر حاله. حدّثته آرميل عن زبائنها. أصغى إليها. لسنوات، كان فيرجيل يراها مصمّمة على تحقيق مشروعها؛ سرّه أن يراها متحمّسة. كانا في العمر نفسه ولكنّها كانت متفوّقة عليه. لم يكن يوقفها أيّ شيء عن تحقيق طموحها. وكانت بذلك نموذجاً يحفّزه ويثير حماسته. عادا إلى سيرة كلارا.

- ألا تتذكّر إن كانت شقراء أم سمراء؟

استلقى فيرجيل على الأريكة. كان بحاجة إلى أن يرتاح. فقد أضناه قرار البحث عن كلارا وضاعف من قلقه. ولكنّه عزم على ألا ترعبه هذه المخاوف التي تلزمه الاعتزال في بيته.

- لا أعلم إن كانت طويلة القامة أم قصيرة، لا أعرف لون عينيها ولا آرائها السياسية. لا أدري إن كانت تشاهد أفلاماً قديمة، إن كانت تقرأ، ولا أيّ موسيقى تسمع. ولكنني أحبّ الطريقة التي تتكلّم بها، أحبّ نبرة صوتها.

بدا له صوتها أهمّ شيء. باتت زقزقة العصافير والموسيقى

Twitter: @ketab_n

وحفيف الأوراق المتناثرة على الأرض جزءاً من الضجيج المصاحب لصوت كلارا.

- برأيكِ، لماذا لا أستطيع أن أتذكّرها؟

قالت آرميل بنبرتها العذبة والساخرة:

- المصدر الأكثر شيوعاً لفقدان الذاكرة هو الصدمة الجمجمية.

- لم أصطدم بشيء.

- على أيّ حال، تعرّضت لصدمة.

جسّ فيرجيل جمجمته. فتحت آرميل النافذة لتهوية المكتب. لقد تراكمت أسرارٌ ومخاوف وعواطف في هذه الغرفة طيلة النهار.

قال فيرجيل:

- أشفق الجميع عليّ. هذا لا يُطاق. يقضي أصدقائي وقتهم في الإشفاق عليّ. لم أعد أطيق النظر إليّ كحالة ميؤوس منها. وكأنّ نعشي ينتظر في الغرفة المجاورة. لم يفت الأوان، ما زال بمقدوري أن أعيش.

- أنت أشجع شخص أعرفه يا فيرجيل. لستُ قلقة بشأنك.

نهض فيرجيل وانحنى نحو النافذة. كان متسكّعون يقفون أمام خيمهم على حافة القناة يغنّون، وأزواجٌ يدفعون عربات أطفالهم، ومراهقون يلعبون كرة الطاولة، وزورقٌ ينتظر الرافعة. كانت مجموعة من الشباب تتنزّه.

قال فيرجيل وهو يشير إلى بقعٍ تشكّل إكليلاً في الأدغال بالقرب من الرافعة:

- أحبّ هذه الأضواء الصغيرة.

Twitter: @ketab_n

- هؤلاء شبّان يدخّنون كوكايين متبلّر. إنّهم يختبئون. غالباً ما يقوم رجال الشرطة بدوريات مذ أصبح المكان معروفاً.

شوّش الحزن نظرة فيرجيل. التصقت آرميل به وطوّقت كتفيه بذراعها. كان فيرجيل يحبّ عطرها من المسك الرومي الممزوج بالياقوت والمسك.

قالت آرميل:

- سأعطيك نصيحة بشأن كلارا.

- لمَ لا.

- لا تتصوّرها. لا تتخيّلها. سيكون ذلك خطأً مميتاً. لأنّك في اليوم الذي ستلقاها، ستشعر بالإحباط.

- عدم تصوّرها.

ردّد فيرجيل الجملة لتترسّخ الفكرة في ذهنه جيّداً.

- أنت لا تنتبه لذلك يا فيرجيل، ولكن يجب أن تقاوم قدراتك الرهيبة في التخيّل.

كانت آرميل محقّة: كان فيرجيل يحلم بالنساء اللواتي يحبهنّ. لا شكّ أنّه كان يحبهنّ لأنّه يتخيلهنّ. حينما يلتقي بهنّ، يضفي عليهنّ أصباغ وملامح ليست فيهنّ. إذا كانت آرميل قريبة منه، فذلك لأنّها تملك ما يكفي من التصميم والغموض لكي لا تحرّك الآلة الخلاّقة لصديقها. لم تكن هناك ثغرات عليه سدّها.

مع ذلك، كان تحذير آرميل غير مجدٍ، لأنّ فيرجيل هذه المرّة أمام امرأةٍ لا يمكن تخيّلها. لا يولد التخيّل من العدم، إنّه يحتاج إلى مادة لتحويلها. ولم يكن لدى فيرجيل أيّ إشارة على هيئتها، لم تكن

Twitter: @ketab_n

هناك أدنى ذرّة أو جزئية يمكنه استخدامها لتكوين صورة عن كلارا. طبعاً، لو استطاع أن يكوّن صورة كاملة عنها، لتخيّل فيها كلّ ما يتمنّى أن يجده في امرأة، لكنّه كان قد حُذِّر كثيراً من مخاطر خطوة كهذه. حينما نحلم بشريكنا المثالي، نصف أنفسنا ولكن من دون ذكرِ نواقصنا ولا نقاط ضعفنا، ومع الجنس الذي يناسبنا.

Twitter: @ketab_n

تبدّد النهار دون أن ينتبه فيرجيل لذلك؛ بالكاد اشتغل ممضياً وقته في بري الأقلام وفي تغيير مكان الأشياء. مساء هذا الثلاثاء، كان وحيداً في عيادة الدكتورة زيتكين. كان يجلس دائماً في المكان نفسه، بين باب المدخل وباب المكتب. استغلّ وحدته في المكان لكي يمدّ ساقيه ويسترخي في الكرسي.

أتاحت له الجلسات مع الدكتورة زيتكين أن يدرك إلى أي درجة قد أثّرت طفولته على حياته العاطفية. أمضى شبابه في الترحال عبر فرنسا مع فرقة «الفيل الآسيوي» للسيرك التي كان والداه ينتميان إليها.

تأسّست فرقة السيرك في نهاية الحرب الإسبانية من قبل إيميليو لافينيا أحد أعضاء الحزب الماركسي. في آذار/ مارس 1939، سقطت مدريد بسبب خيانة الكولونيل كاسادو، سُحق الجيش الجمهوري وعاد المتطوعون الأجانب إلى بلدانهم وطارد أنصار فرانكو المعارضين. كان من بينهم إيميليو لافينيا ورفاقه الذين وجدوا ملاذاً في قرية كاتالونية قريبة من إيلفاندريل. كانت غالبية العمارات مهدّمة وقد فرّ سكانها أو قُتِلوا. في مكان القرية، كانت فرقة سيرك

Twitter: @ketab_n

قد نجت جزئياً من القذائف والقنابل. استعاد إيميليو لافينيا وأصدقاؤه خيمة السيرك والعربات النقّالة والأزياء. أطلقوا اسم «الفيل الآسيوي» بدل الاسم الأصلي للسيرك. لم يكن لديهم أيّ فيل أو أي حيوان غريب آخر في السيرك، ببساطة كانوا يحبّون هذا الاسم وصورة هذا الحيوان الهزيل المطرّزة على القماشة. كان الحيوان العملاق رمزاً ساخراً للهاربين.

أتاح لهم السيرك أن يعبروا البلاد متنكرين ويلجأوا إلى فرنسا. ولعدم إثارة الشكوك، قدّموا عرضاً في كلّ محطّة توقّفوا فيها.

طوّر هؤلاء الرجال والنساء الذين هجروا مهنتهم في بداية الحرب الأهلية لتعلّم استخدام الأسلحة والمتفجرات، مواهب غير متميّزة من بهلوانات وسائرين على الحبل المشدود ومن يثنون القضبان الحديدية وموسيقيين ومؤدّي حركات تشويه الوجه ومهرجين وسحرة ومشعوذين. وبخلاف كلّ توقّع، اكتشفوا بأنّهم فنانون مهرة بقدر ما هم مقاتلون بارعون. فتمسّكوا بلعبة بزّاتهم الجديدة.

كان والدا فيرجيل قد عرفا لافينيا وفرقته لدى مرورهما ببلدة بو في بداية ستينيات القرن الماضي. كانا قد فقدا والديهما أثناء الاحتلال الألماني ولذلك لم يكن هناك ما يمنعهما من الرحيل. تركا دراستهما في ثانوية بارتو لينضما إلى الفرقة.

كانت فرقة السيرك متّحدة. وكان من بين أعضائها أطفال وبالغون ومسنّون وماعز وخاروف وحمار تمّ طلاؤه على هيئة حمارٍ وحشي وكلاب وقطط. وكانت الفرقة تقدّم عروضها تحت تأثير الأوكورديون والغيتار والنبيذ.

Twitter: @ketab_n

كان الأعضاء القدماء يروون حكايات ويستذكرون الأصدقاء الذين سقطوا والمعارك وروابط الإخاء التي كانت تربطهم في سنوات شبابهم. ولكنّ حياتهم كانت صعبة ومحفوفة بالمخاطر. انتحر أعضاءٌ من الفرقة؛ حيث كانت حفلات العشاء الصاخبة قناعاً للميل العام نحو الإدمان على الكحول.

كانت واردات السيرك تشهد تفاوتاً كبيراً. ففي بعض المدن، لم يكن أحدٌ يفتح الستائر الحُمر والذهبية لخيمة السيرك. كانت الإيرادات تعتمد على حالة الطقس أو على مباراة كرة قدم في التلفاز أو على وباء التهاب المعدة والأمعاء. حينما كان عدد المشاهدين يتزايد كانت الفرقة تعيش بشكلٍ لائق. وحينما كان الجمهور يصبح شحيحاً، كانت المعجنات تصبح وجبة يومية؛ ويلجأ أعضاء الفرقة إلى قسائم الطعام من البلدية والألبسة الموهوبة من جمعية الإغاثة الكاثوليكية.

لم يمكثوا لأكثر من شهر في المكان ذاته. ظلّ فيرجيل في مدرسةٍ لزمنٍ طويلٍ بما يكفي لكي يعتدي عليه أضخم طفلٍ بالضرب ويهشّم وجهه.

كان والداه زوجين سعيدين ولكنّ قدرهما أثّر على نظرته للعلاقات الغرامية: على إيقاع طبلٍ وصنجٍ، كان والده، وهو معصوب العينين، يرمي سكاكين باتجاه والدته (التي كانت ترتدي بزّة وردية بحواشٍ ذهبية مثيرة على نحوٍ شنيع) والمشدودة على دريئة ضخمة ومتقلبة. كانت النصال تنغرس على بعد أقلّ من سنتيمترٍ واحدٍ من جسد والدته. أمضى فيرجيل طفولته في مشاهدة هذا

Twitter: @ketab_n

العرض الذي يحتمل القتل. كان ممزّقاً بين رعب رؤيتها وهي تموت والخجل من عارها أمام مشاهدين كانوا غالباً زملاءه في الصفّ برفقة أهلهم.

حسب فيرجيل كان والداه يبذلان من الطاقة بقدر مركزٍ نووي صغير. كانا مثيرين للتعب والقلق وكان يحبّهما كثيراً. منذ أن عاش في باريس، كانا يرسلان إليه أسبوعياً بطاقة بريدية غالباً ما تحمل صورة ساحة القرية التي يقدّم السيرك عروضه فيها. كان فيرجيل يتّصل بهما كلّ يوم أحد وكذلك في الليالي التي يراوده كابوسٌ يخطئ فيه والده هدفه (ذات مرّة، قال للدكتورة زيتكين: «على أطبّاء النفس أن يتبرعوا بجزءٍ من أرباحهم لأهل زبائنهم»). كان يكسب أفضل من والديه ولكنّهما كانا يرفضان نقوده؛ لذلك أسّس أيضاً شركة يانصيب وهمية (فورتونا هوديني كانوتا، الكائنة في الجنّة الضريبية لجزر كايمان) والتي ترسل إليهما من حينٍ إلى آخر في مغلّفٍ كبيرٍ مذهّب شيكاً بمبلغٍ من المال لأنّ تاريخ ميلادهما واسمهما ورقم لوحة سيارتهما قد شاركت في سحب اليانصيب وفازت به.

هل هذه الطفولة البوهيمية تعلّل حاجة فيرجيل إلى الاستقرار؟ مهما يكن، لم يعد يسافر ولم يتحمّل أن تكون له مشاكل مالية. عيّن ماركوس أوريليوس، الإمبراطور الرواقي، في منصب الوصي. وكان أوريليوس قد تعرّض لموت زوجته (وخياناتها المحتملة) وخيانة أفيديوسكاسيوس، وقد دافع عن روما ضدّ البرابرة وقد شهد عهده فيضانات نهر التيبر وزلزال كيزيكوس وزلزال سميرنا ووباء الطاعون.

Twitter: @ketab_n

بكفاحه اليومي، نجح في النجاة وفي إنقاذ الإمبراطورية والعيش كفيلسوف. كانت حياة فيرجيل هي الإمبراطورية التي عليه أن ينفذها. يساعده في هذا المشروع بثباتٍ واتّساقٍ الدكتورة زيتكين واليوغا.

كان يحمل معه باستمرار نسخة من كتاب «تأمّلات» لماركوس أوريليوس ، كتعويذة.

انفتح الباب. تحرّر فيرجيل من تأمّلاته ودخل إلى العيادة.

لم تبدِ الدكتورة زيتكين أيّ إشارة إلى المفاجأة أو الاهتمام حينما أخبرها فيرجيل بمشروعه للقاء كلارا وذلك إخلاصاً لمهنيتها.

قال فيرجيل مندهشاً:

- لم تقولي شيئاً!

كانت الدكتورة زيتكين، جالسة إلى مكتبها وقد صالبت يديها على مفكّرة ملاحظاتها، ساكنة كتمثالٍ من الشمع. يُحرّك مصباح الهالوجين الخافت ظلال وجهها. لم يكن فيرجيل قد اتّخذ مكانه التقليدي على الأريكة. كان يحتاج إلى المواجهة وليس إلى الاستمرار في سرد أحلامه وجمع الأفكار والصور. قرّر أن يضع تحليله النفساني بين قوسين. تظاهرت الدكتورة زيتكين بأنّها لا مبالية بهذا التمرّد. أراد فيرجيل أن تتكلّم، أن تقول أيّ شيء، لم يكن ذلك مهمّاً، بل أن تقدّم له الدليل بأنّها قد نطقت. أراد أن يتأكّد من أنّها قد أصغت؛ كانت مسألة الفهم ثانوية.

من نتوء المكتبة ومن رفوفها، بدت التمائم المصرية والرؤوس

Twitter: @ketab_n

الأفريقية المنحوتة تتفرّس فيه. منحه هذا الجمع من البلدان والعصور الإحساس المطمئن بأنّه جزءٌ من التاريخ الإنساني: كانت مشاكله وشكوكه ورغباته تنتمي إلى التقاليد.

فوق الأريكة، عُلّقت صورة للقديس جورج وتنين رافائيل. كاستحواذيّ متميّز، أمضى فيرجيل صباحية في المكتبة الوطنية لكي يستعلم حول الشخصية. حسب ما عرفه، رفض القديس جورج التنكّر لإيمانه ولذلك تعرّض لتعذيبٍ طويل وللتصفية لمدّة سبعة أعوام؛ إذ مات وبُعِث ثلاث مرات قبل أن يُضرَب عنقه. شعر فيرجيل أنّه قريبٌ من هذه الشخصية. كان المشهد الأشهر لحياته المضطربة هو المشهد الذي يُصارع فيه الفارس تنيناً يحرس ابنة ملك ليبيا في السجن. نرى في أعلى يمين اللوحة، الأميرة وهي تهرب بينما يواجه الفارس الوحش. كانت هذه اللوحة تمنح الشجاعة لفيرجيل كلّما عانى من مشاكل. قضّ سؤالٌ مضجعه للحظة: لماذا هربت ابنة ملك ليبيا؟ أدرك الآنّ أنّها تركت القديس جورج مع التنين لأنّها كانت تعرف نفسها أكثر مما ينبغي: كان الفارس والتنين حبيسي علاقتهما العنيفة. كان فيرجيل يفضّل النسخة التي رسمها باولو أوشيلو والمعروضة في المعرض الوطني، لأنّ الأميرة تنتظر في هذه النسخة انتصار الفارس. كان موت التنين يعني أنّه قد يكون لها مكانٌ في حياته. راقت لفيرجيل رؤية رومانسية. قرّرت الدكتورة زيتكين أخيراً أن تقطع الصمت.

- أتعتقد أنّ عليّ أن أقول شيئاً؟

- لا على الإطلاق.

Twitter: @ketab_n

طبعاً نعم. رغب فيرجيل في أن تمسك بيده وتساعده في العثور على كلارا؛ أن تعيده إلى مكانه وتقول له أيّ رجلٍ مذهلٍ هو. شعر بأنّه مثيرٌ للشفقة.

- سأغيب لأسبوعين.

هزّ الخبر فيرجيل. كيف سيتدبّر أمره من دون المواعيد الأسبوعية الثلاثة؟ لا شكّ أنّه أراد أن يقنعها بالبقاء، وأن يشرح لها بأن لا تُحبَط بالمشهد وأنّ هذه الحكاية الواعدة بالمفاجآت والإثارة تستحقّ عناء إلغاء عطلتها.

- إلى أين؟

- أتريد اللحاق بي؟

- كلا. إلا إذا طلبتي مني ذلك.

كانت الدعابة آلية للدفاع، وهو يدرك ذلك ولكن يصعب عليه الامتناع عن استخدامها. ربّما أراد أن يُضحك الدكتورة زيتكين، ولكن ذلك كان أشبه بطموح العصابي الذي يرغب في إمتاع لعبة بلاستيكية. ذات يوم، سيمتلك ما يكفي من النضج لكي يكفّ عن التأثير على طبيبته النفسانية. ذات يوم، سيكفّ عن الوقوع في غرام نساء وظيفتهنّ الوحيدة هجره.

- هل سيكون هاتفكِ النقّال معكِ؟

- كلا.

- وماذا سأفعل حينما أواجه مشكلة؟

كان القلق حقيقياً. كانت بيئة فيرجيل تتفتّت ولم يكن متأكّداً من أنّه سيجد شيئاً سوى الفراغ ما أن ينتهي هذا التفكّك.

Twitter: @ketab_n

– هذا هو السؤال: ماذا ستفعل؟

تركت الدكتورة زيتكين فيرجيل لمصيره. أمّا هو فقد كان يأمل أن تعرف ماذا تفعل. شطبت الدكتورة زيتكين الأسبوعين الأخيرين بالقلم الأحمر على مفكّرة المواعيد. كان لدى فيرجيل طلبٌ أخير.

– أحتاج إلى شهادة طبية تثبت أنني حيّ لكي يعيدوا الكهرباء إلى منزلي. هذه حكاية طويلة.

دون أيّ إشارة أو تعليق، حرّرت الدكتورة زيتكين الشهادة.

لم يكن لدى فيرجيل فكرة واضحة تماماً عن طلبه. ربّما تحمّس وجرى خلف فكرة كلارا، فكرة تلك المرأة التي تحقّق خياله المازوشي: أن يُهجر قبل إقامة علاقة. ربّما كان هذا شيئاً مختلفاً عليه اكتشافه، لغزٌ كان عليه حلّه.

ثنى الشهادة الطبية ووضعها في الجيب الداخلي لسترته. كانت تلك الوثيقة تثبت بأنّه حيّ، يُثبتُ خاتم وتوقيع الدكتورة زيتكين ذلك. لم يكن ذلك خبراً سيئاً.

Twitter: @ketab_n

تسكن فوستين في الجزء السفلي من حيّ مونمارتر. تعمل كمصمّمة غرافيك في دارٍ لنشر الكتب الفنية. تقضي معظم أوقات فراغها وعُطلها في التظاهر والدفاع عن المجرّدين من الأوراق الثبوتية والعاطلين عن العمل وتنظيم الاعتصامات في المباني البرجوازية دعماً للذين يقيمون في مساكن سيئة. كانت الأكثر إهمالاً لمهنتها من بين أصدقاء فيرجيل.

لاستذكار الجوّ المهدئ لعيادة الدكتورة زيتكين، نثر فيرجيل بعض وريقات الشاي في جيوب بنطاله وسترته. جاء مباشرة لدى مغادرته العمل؛ كان يوم الأربعاء كئيباً في سفينغالي. دقّ الباب.

فتحت فوستين الباب. كانت ترتدي ثوباً كاكياً وسترةً سوداء؛ تتدلّى أقراطٌ حمراء فوق كتفيها. كانت رائعة. يعتبر فيرجيل أنّ كلّ النساء جميلات. واللواتي لا يبدون جميلات، هنّ ببساطة اللواتي أسأن ارتداء الثياب وتصفيف الشعر والتزيين. الرجال هم أخطاء الطبيعة، ليس هناك من مبرّر منطقي لحياتهم البلهاء وسماجتهم الجسمانية.

بينما كانت فوستين تسكب ماءً في غلاية على هيئة فيلٍ، خلع

Twitter: @ketab_n

فيرجيل حذاءه الطويل. سألا عن أحوال بعضهما وجلسا على الأرض، إلى طاولةٍ يابانية صغيرة ساحرة.

كانت فوستين تشتري وتبيع وتتبادل بعض الأشياء على الإنترنت. لم تكن قطع الأثاث المنزلي والحليّ تصمد أكثر من قصص حبّها. كان فيرجيل يحدّد موقعه بصعوبة في تلك الشقّة التي تغيّر مظهرها شهرياً. فالمكان المخصّص للأريكة يستقبل في الشهر التالي أصص زهورٍ ويصبح الحمّام مطبخاً؛ وتتحوّل غرفة النوم إلى صالونٍ والمكتبة إلى خزانة للطناجر. كانت المغاسل العنصر الوحيد الثابت والمستقر في تلك الشقّة الواسعة؛ يلجأ فيرجيل إليها حينما يشعر باستفحال أزمة قلقٍ ناجمة عن هذه التغييرات المدوّخة.

كان سعيداً لأنّه لم يعش قصّة حبّ مع فوستين. ما كانا لينجحا. كانت فوستين دائبة الحركة وجدّية للغاية في حياتها العملية. هذه صفات مغرية لفيرجيل ولكن غالباً ما كان يغري فيرجيل في امرأة هو سبب فشل العلاقة معها.

صفّر الإبريق المعدني الشبيه بالفيل. نهضت فوستين وصبّت الماء الفائر في إبريقٍ من البورسلين الأحمر المزيّن بنقاطٍ سوداء.

قالت:

- لم تتصل بي كثيراً في الفترة الأخيرة.

كان فيرجيل يظنّ أنّ فوستين سعيدة بعزوبيته لأنّه بذلك يكون قريباً منها. تستطيع خلال سهرات كاملة أن تتحدّث إليه عن غرامياتها ووالديها وعملها ومشاريعها. قد لا يعترف أحدٌ بهذه الحقيقة، ولكن ليس هناك ما هو ممتعٌ في نجاح أصدقائنا في حياتهم الخاصّة ووقوعهم في الحبّ لأنّ ذلك يبعدهم عنّا. تتأسّس أكثر مجموعات

Twitter: @ketab_n

الأصدقاء تماسكاً على الإخفاقات العاطفية والمهنية. مع ذلك كانت فوستين تخدع نفسها هنا وتعتبر أنّ فيرجيل لم يقلّل من الاتصال بها أو من لقائها. لم تشعر بهذا الشعور إلا استدلالياً.

سكبت الشاي في أكوابٍ فخارية مصقولة. من الواضح أنّ ما كان فيرجيل يخشاه قد حدث. اندهشت فوستين لأنّه لم يعرّفها على كلارا. لم تدرك لماذا كان كتوماً إلى هذا الحدّ. شعرت بالإهانة. خلال شهر، لم يجد الفرصة لكي ينظّم حفلة عشاء أو مقبلات.

شعر فيرجيل أنّ فوستين مستعدّة لأن تفحمه. صداقة الرجال أكثر راحة من صداقة النساء. النساء يفهمن الكثير من الأمور. إنّهن مزعجات وكارثيات لأنفسهنّ ولكنّ رؤيتهنّ واضحة لشؤون المقرّبين منهنّ. إنّهنّ يحلّلن ويفكّكن ويُعلّقن ويقترحن. أمّا الرجال فيكتفون بنصائح تبسيطية وفي غير محلّها.

منذ أن بدأ بعلاجه النفساني، اعتاد فيرجيل أن يتحدّث لأصدقائه وأن يخبرهم بنبضات قلبه. كان هذا الصمت بشأن كلارا غير معتادٍ، وكانت فوستين محقّة. لتبديد شكوكها، أخبرها بأنّه فضّل أن يتأكّد من مشاعره. كان ذلك بدافع الحذر. بدت فوستين أنّها قد اقتنعت بالحجّة. بعد أن تلاشى كلّ خطر على كشف الحقيقة، أخبرها بقراره:

- لقد قرّرتُ أن أبحث عنها.

اعتقد فيرجيل أنّ صديقته ستفرح لقراره الرومانسي. في نهاية المطاف، ولمرّة واحدة، قرر أن يكافح. في الماضي، كلّما تهجره امرأة، كانت تشجّعه على أنّ يحوّل الانفصال إلى فرصة ثانية، ولكن

Twitter: @ketab_n

دون نتيجة. في الحقيقة، ارتاح فيرجيل لتخّلصه من النساء اللواتي لم يعُد يفهم جاذبيتهنّ التي يمارسنها عليه. وبقي إلى الآن غير ملتزمٍ بنصائحها في منح فرصة ثانية لعلاقاته.

غطّ شفتيه في الشاي، رمت فوستين وسادةً في وجهه. انسكب الشاي على صدره وأحرقه. صرخ وحدّق في فوستين ذاهلاً.

- منذ سنوات، تحاولين أن تعلّميني أن أكافح...

- غيّرتُ رأيي.

- غيّرتي رأيكِ؟

- أنت تختار فتيات سوف يرفضنك حتماً، ستثبت عزلتك الذهانية فقط.

كان فيرجيل ينتظر الضربة القاضية وهو يمسح الشاي عن وجهه وقميصه.

- اهجر نفسك بنفسك، لا تفوّض الأمر للآخرين.

لم تكن هناك للأسف وسائل ليهجر المرء نفسه بنفسه سوى الانتحار والذُهان. دَعَك فيرجيل وريقات الشاي في جيبه. مرّت شخوص علاقاته في ذهنه مثل شخصيات لوحات جيروم بوش. لم تكن فوستين مخطئة، كان هو العدوّ اللدود لنفسه. تذكّر اكتشافه لثلاثية حديقة البهجة في صالة لسيارات برادو. في السنة الماضية، أرغمته سيمون على أن يأخذ إجازة: اشترت له بطاقة طائرة إلى مدريد وحجزت له غرفة في فندقٍ فاره. كان فيرجيل يكره مغادرة باريس: في كلّ مرّةٍ يسافر، تضيق عليه الأرض حتماً، يُرعبه الشعور بالعيش على كوكبٍ يمكن عبوره في بضع ساعات. كان بحاجة إلى

Twitter: @ketab_n

أنّ يصدّق بأنّه من المتعذّر الوصول إلى أميركا وأنّ الصين تفيض بالكنوز وبالعلوم الطبية وأنّ أفريقيا تضمّ حضارات تجيد السحر وغابات مليئة بحيوانات خرافية.

ولكنّه لكي يُسعد سيمون وأيضاً لأنّ النشاطات الجنسية الدؤوبة في عمارته بدأت تهيّجه، اقتنع بفكرة السفر. أمضى معظم رحلته في الفندق، في القراءة في الأرائك الخشبية المذهّبة للصالون، في اللعب بالشطرنج مع النادل الأعور، في شرب الشاي في الحدائق وفي السباحة على الظهر بين السبّاحات العالميات. أقنع أحد زبائن الفندق، وهو من هواة الزيارات والنزهات، ليبيعه صور رحلته لكي يعرضها على أصدقائه وزملائه حينما يعود إلى باريس. الخلاصة، أمضى عطلة مثالية.

ذات صباح، اكتشف بطاقة لمعرض برادو بين أغراضه، تنبيهٌ من سيمون. إذا كان يحبّ المتاحف، فذلك لكي يتسكّع فيها؛ يعتبرها نوعاً من الغابات حيث من الممتع التنزّه فيها، بذهول. لم يكن وارداً الوقوف جامداً أمام كلّ واحدة من التحف الفنية. لم يكن لدى فيرجيل القدرة على أن يشاهد سوى خمس لوحات. بعدها، يكون الأمر بمثابة جرعة زائدة، حيث تمتزج كل الألوان والمواضيع، ويختلط كليمت وليوناردو دافنشي وماري-غيومين بينوا وأرتيميسيا جنتلسكي في خلطة عجيبة.

لتجنّب الحشود، ذهب إلى معرض برادو لحظة افتتاحه. جال في القاعات وعندما تطلّبت غريزته منه وقف أمام لوحةٍ. كان يقف مطوّلاً وهو يتأمّل ثلاثية الرسام جيروم بوش، لانّه كان يجد نفسه في

Twitter: @ketab_n

بعض الشخصيات المعذّبة وكان العديد من رفاقه يشبهون بطريقة صارخة صور المحكومين بالجحيم.

أعادت فوستين صبّ الشاي. لتلطيف الجوّ، وضعت أسطوانة لموسيقى الجاز.

قال فيرجيل:

- أوافقك الرأي، أنتِ محقّة. لم أختر قط نساءً يمكن أن تقوم علاقة بيني وبينهنّ. ولكنّ حكايتي مع كلارا غيّرتني. كانت مختلفة عن الأخريات.

- حقّاً؟

- لا تتخيّلين إلى أيّ درجة. أحاول أن أفهم لماذا هجرتني.

بحركة عبوس، عبّرت فوستين عن شكّها في قدرات صديقها على التغيّر، لكنّ رغبتها حفّزتها. وكشفت له عن الأسباب الأربعة التي يمكن باعتقادها أن تدفع امرأة إلى الهروب منه:

- أنت فظّ، وتفتقر للثقة بنفسك، وتعمل في الدعاية والإعلان وتقيم في عمارةٍ للعاهرات. من الطبيعي ألا تشعر النساء بالراحة.

كانا قد تعارفا منذ خمسة أعوام ولكنّ فوستين رفضت باستمرار زيارة منزله بسبب المشهد المهين للعاهرات ولزبائنهنّ. كانت لمبادئ فوستين الكثير من السحر. وكان لها دورٌ في الإغراء الذي مارسته على فيرجيل.

- كيف كنتُ أثناء الحفلة؟

- كالعادة: منحرف المزاج وقد برزت روح الدعابة كحربة بندقية. كنتَ في حالة سكر.

كان فيرجيل يسكر أثناء السهرات التي ينظّمها أصدقاؤه. لم

Twitter: @ketab_n

يكن الخمر يجعله أكثر اجتماعياً وإنما كان يضفي عليه المزيد من الجدّية والوقار ويعمّق من خجله وحقده على الروح الجماعية.

يشرب كمية معقولة؛ يغامر غرامياً في حالة السكر دون أن يصبح ثملاً بحيث يأخذ راحته مع الاحتفاظ بالسيطرة على نفسه.

- أريد أن أعتذر لكلارا.

- تعتذر عن ماذا؟ عمّا أنت عليه؟

- عن كوني لم أكن مختلفاً بعض الشيء عمّا أنا عليه (شفّ شفتين من الشاي الحارق قبل أن يغيّر الموضوع). ما رأيكِ بكلارا؟

- بالكاد أعرفها.

- حقّاً؟

- لأنّكما كنتما تائهين في ذلك المساء، عرّفتها بك.

- ليس لديّ رقم هاتفها. هلا يمكنكِ أن تزوّديني به؟

قالت فوستين:

- ليس لديّ رقمها. إنّها صديقة مود. هي من اتّصلت بي لتخبرني بانفصالها عنك.

لم يكن ذلك خبراً سارّاً. كانت مود ترغب منذ سنوات في النوم مع فيرجيل وكانت مقاومتها تتطلّب بعضاً من ضبط النفس (وقد ساعدته رياضة اليوغا كثيراً في ذلك)، لأنّ شعرها كالحرير وجسمها خارقٌ وهي على موهبة كبيرة في السخرية.

ما أن خرج من بيت فوستين، اتّصل بها وترك لها رسالة مسجّلة على هاتفها ليخبرها بأنّه يرغب في اللقاء بها لأمرٍ عاجل.

Twitter: @ketab_n

ما أن عاد إلى بيته ولأنّ الليل قد هبط، اعتمر خوذته الكشّافة وأنار مصباحها الجبهي ليتجوّل في شقّته. كانت فوستين قد سلّمته علبةً كرتونية أودعتها له سالوميه عندها.

كانت سالوميه آخر صاحبة لفيرجيل وهو لا يعلم لماذا تركته. اتّصلت به لتخبره بانفصالهما ولكنّ جارته في الطابق العلوي وجارته في الشقة المجاورة لشقّته بالغتا في التظاهر بالإحساس بنشوة الجماع لدرجة أنّه لم يسمع تبريرات سالوميه. لم يجرؤ على مطالبتها بأن تكرّر. ولأنّه قدريّ، كان متأكّداً من أنّ لديها أسباب وجيهة جداً. استمرت علاقتهما لبضعة أشهر وانتهت مع بداية فصل الصيف. كانت سالوميه تكره حارة فيرجيل فكان هو الذي يأتي إلى شقّتها في غوبلان القريبة من ساحة إيطاليا. لقد ترك فيها قمصاناً وبنطالاً وألبسة داخلية وأسطوانات وكتباً لم يكن مستاءً لاستردادها.

فتح العلبة الكرتونية. لم تكن أغراضه التي تركها في بيتها. كانت الثياب لرجلٍ بضعف قياسه وبضعف رداءة ذوقه. كان يكره القمصان غير المألوفة. وكان البنطال من الفئة نفسها. كانت سالوميه قد خلطتهم مع ألبسة شخصٍ آخر من أصحابها. إذاً، هل لم تكن

Twitter: @ketab_n

تعرفه جيداً؟ هل تخيّلت بأنه قد يستطيع ارتداء هكذا أسمال؟ كان الأمر مغيظاً. وكانت الأسطوانات أيضاً مغيظة. لم يكن يحبّ الاستماع إلى هذا النوع من الموسيقى. كان كلّ ما راوه لسالوميه وكلّ ما تحدّثا بشأنه قد نُسي. كان يفكّر فيها أحياناً، في لحظاتهما الجميلة، في عشاءاتهما المرتجلة على ضفاف نهر السين، في جلساتهما السينمائية في شارع شامبليون. هذه الذكريات فقدت فجأةً معانيها.

وجد في الصندوق قائمة مأكولات يابانية وطلب تشكيلة منالسوشي والساشيمي والماكي. استعدّ لمساء الأربعاء وحيداً ومكتئباً. اعتمر الخوذة الكشّافة وصبّ لنفسه كأساً من نبيذ الفوجير وأخذ يفكّر في حياته الغرامية. كان ضوء الخوذة الكشّافة يعبر كأس النبيذ ويعكس مسحّة من اللون الأحمر على الجدار. شرب فيرجيل جرعةً.

لم يكن قد احتفظ بأيّ صلة مع صديقاته السابقات. ليس لأنّ حالات الانفصال كانت أليمة وإنّما لأنّها لم تكن كذلك بما فيه الكفاية.

كان هناك توازياً مقلقاً بين نموّ السياحة وتزايد القصص العاطفية. نحبّ بقدر ما نسافر، لفترات قصيرة وتبعاً لدوائر منتظمة. نقع في الحبّ لكي تكون لنا ذكريات ورسائل ومجموعة أحاسيس وألوان جديدة في قزحية عيوننا؛ لنستطيع الحديث عن ذلك في المكتب لأصدقائنا، لطبيبنا النفساني. لا فرق بين الحبّ والأسفار، فمثلما نعود من الأسفار نعود من الحبّ أيضاً.

Twitter: @ketab_n

لماذا كان يقع في حب هؤلاء النساء؟

كنّ جميعاً جميلات وذكيّات، ولكنهنّ كنّ يفتقرن إلى الشخصية القوية. ميزتهنّ الرئيسة هي أنّه لم يكن يتألّم لفراقهنّ. ربّما كان يختارهنّ لهذا السبب: اختار نساءً لا يسبّب له فراقهنّ ألماً مستمراً. نساء لا يحدث بينه وبينهنّ شيئاً مزعجاً. على الأقلّ، لا يجرَح أحدهما الآخر.

قبل ظهور/ اختفاء كلارا، لم تكن هناك مفاجآت في حياته. حياةٌ تافهة ولكنّها تحت السيطرة. حياةٌ متوازنة.

كان فيرجيل يدرك بأنّه يفتقر إلى الطموح. هناك فرق بين أن يكون المرء طموحاً وأن يقوم بالاستثمار في ما يفعله. تعهّد أن يكون صارماً بعد الآن في حياته الشخصية كما هو في حياته المهنية؛ سوف يلطّف أسلوبه باستمرار ويطوّره ولن يتردّد في التخلّص من الغموض. ولكنّ هل محاولة العثور على امرأة لم يلتقِها قطّ دليلٌ على الطموح أم الاختلال الذهني؟ لم يكن متأكّداً من الجواب.

دُقّ الباب. كان النادل الذي أحضر المأكولات اليابانية. دفع له فيرجيل الحساب وأفرغ كأسه وخرج من بيته. أعطى السوشي للفتيات الغانيات وتوجّه نحو ساحة الجمهورية.

أنعشه المطر. اندهش لأنّ شعره لم يبتلّ فاكتشف بأنّه قد احتفظ بالخوذة على رأسه.

بعد قليل، ظهرت علامة متاجر مونوبري في شارع تانبل. كانت أحرفها الحمراء تلمع في الشفق. شعر فيرجيل بأنّه أحسن حالاً. حينما عبر الأبواب الأوتوماتيكية ليدخل وسط الضوء، تلاشى الضغط

Twitter: @ketab_n

على كتفيه. ليس هناك ما هو أفضل دعماً وتضليلاً من الاستهلاك. في بعض أماسي الوحدة، حينما كانت الصداقة تبدو له مجرّدة من المعنى، حينما لم يعد يؤمن بالسهرات بين الأصدقاء، كانت جولة بين أشعّة متجر مونوبري هذه تبثّ الدفء في قلبه. لم يُصدّق بأنّه حرّ في شراء هذه العجائب. وجد في المتجر الأشياء التي حلم بها في طفولته مثل الدببة والدمى: ماركة من الحبوب، علبة برتقالية اللون من الشوكولا المبشورة، علبة مسحوق الغسيل وفي داخلها هدية، عبوة مياه معدنية. لم تتغيّر المنتوجات، إنّها على حالها وها هي تثير مشاعرها الجيّاشة. للأسف كانت خدمات التسويق تقوّض على نحوٍ متزايد الذكريات وذلك بتغيير شكل وألوان الأغلفة.

أخذ فيرجيل سلّة من قرب صندوق المحاسبة. نظر إليه المراقب بارتياب وأشار إلى خوذته وهو يهمس في أذن رئيسه في العمل؛ وتابعه بنظره للحظة. تجوّل فيرجيل بين رفوف الفاكهة والخضراوات والألبان والخمور والعصائر ومستحضرات التجميل. ذكّرته ألوانها الزاهية بحقول الأزهار. كان يكفيه أن ينظر إلى منتجٍ لكي ينتقل بخياله إلى بلد المنشأ ويفكّر في الفلاحين الذين زرعوا البذور وجنوا الثمار وصنعوا الغذاء.

رأى فيرجيل تشابهاً بين السوبر ماركت وضفاف نهر الغانج في فاراناسي. كانت السلالم المؤدية إلى رفوف المواد الغذائية تشبه الدرجات التي كان الهندوس ينزلونها للاستحمام في النهر المطهِّر. نهرع إلى السوبر ماركت كما يهرع الهندوس إلى نهرهم المقدّس: للاستفادة من فضائله الشافية والمزيلة للقلق والمساعدة على الحمية.

Twitter: @ketab_n

يُتيح التبضّع فرصة لتقاسم خبرة جماعية وخيالية. نمشي بجانب بعضنا. كلّ يحمل سلّته، يدفع عربته. لا أحد يخفي مشترياته. نعرف أنّ للرجل الفلاني بشرة حسّاسة ويعشق السجق ولديه أطفالٌ يحبّون الحبوب بالشوكولا على شكل حيوانات؛ ونعرف أنّ المرأة الفلانية تحبّ فطائر المارينغا بالليمون وأنّ لها شعراً جافّاً وأنّ الطبق الوحيد من السومون والرزّ بالكاري يدلّ على أنّها عزباء.

تكشف السلال حياتنا الحميمية: نعرف كلّ شيء عن حمّاماتنا وعن مغاسلنا ومحتوى ثلاجاتنا ومكونات عائلاتنا. العرض البريء هو القاعدة. نكون عراة كالأطفال وهذا لا يزعجنا.

Twitter: @ketab_n

كان أربعة رجال يفرغون العشرات من فساتين العرائس تتدلّى من علاّقات ملابس وهي مغلّفة بأغلفة بلاستيكية شفّافة من شاحنة متوقّفة عرضاً في ممرّ خاصّ بالدراجات في جادة ماجانتا. كان فيرجيل وآرميل جالسين في محطة تافيرن، قرب محطّة الشرق. تقع هذه المحطّة على بعد ما يقارب مائة متر من محطّة الشمال؛ بعكس شقيقتها الكبرى، كانت هذه المحطّة كريهة وبشعة ولا تجذب المسافرين.

كانت آرميل قد قررت أن تبدأ عطلتها الأسبوعية يوم الخميس وأن تنضمّ إلى آن-إليزابيت في ستراسبوغ بأوّل قطارٍ. وضعت أمتعتها المحزّمة في حقيبة جلدية أنيقة على كرسيٍّ بجانبها. منذ أن فتحت آرميل مكتبها للتنجيم، اشترت غرضين جميلين: حقيبة السفر هذه والحذاء الجلدي الطويل الذي انتعلته ذلك اليوم. كانت ثيابها بالكامل باللون الأزرق البحري. ويكشف شعرها المضموم عن وجهها. وتعبق بشرتها المعطّرة بمزيجٍ من المسك والتوابل.

قدّم النادل سلّة فيها فطائر وعلبتي عصير برتقال، وفنجان قهوة وفنجاناً من القهوة الخالية من الكافيين. كان رذاذٌ خفيف يختلط بالليل الآيل للانتهاء.

Twitter: @ketab_n

غطّ فيرجيل وهو لا يزال نعساً شفتيه في مشروب الديكا. اعتقد أنّه قد قضى وقته في الشرب. كانت كلّ حياته الاجتماعية تنصبّ على الشراب. كلّما تحدّث مع أحد، شرب (خمراً، شاياً، منقوعاً، مياهاً غازية، مشروب الديكا). وكأنّه يشرب لترطيب وتليين الكلمات غير المحبّبة أحياناً أو الفظّة عموماً. قطعت آرميل فطيرة إلى قطعتين. قضمت حرفاً منها وتركت ما تبقّى. شربت جرعةً من عصير البرتقال. تناول فيرجيل قطعة الفطيرة التي تركتها صديقته. كانا قد تجاوزا الثلاثين من العمر ووزنهما يزيد بسرعة. تخلّى فيرجيل للحظة عن فطوره التقليدي المكوّن من ندائف الشوفان ولبن الصويا. شعر بأنّ ساقيه أكثر ثقلاً وبطنه أكثر سُمنةً. هبّ النسيم فرفع ياقة سترته حول رقبته.

- أعتقد أنّ لبّ المشكلة التي أعانيها في حياتي العاطفية يكمن في حقيقة أنني لم أمتلك قدوةً إيجابية.

قالت آرميل:

- والداك يشكلان ثنائياً جميلاً جداً.

كان والدا فيرجيل يحبّان آرميل كثيراً. في كلّ زيارة لهما إلى باريس، يتناولان معها العشاء. كانا يعتبرانها كابنتهما.

قال فيرجيل:

- والدي يرمي خناجر باتجاه والدتي. أهذا هو رأيكِ عن ثنائيّ متوازن؟

- هذا عرض سيرك.

- محاولة للقتل اللاشعوري.

Twitter: @ketab_n

- هذا تفسيرك. المهمّ أنّ والديك سعيدان.

- ربّما كانت حياتي أكثر بساطة لو أنّهما كانا أقلّ سعادة بقليل وأكثر طبيعية بقليل.

هذا الصباح، استيقظ بمزاجٍ سيئ. لم ينم بما فيه الكفاية وبدت حياته بالقليل الذي يفهمه عنها بائسةً. كانت آرميل تقول له بأنّ ليس كلّ شيء بهذا السواد وكان يدعي عليها لأنها أفسدت حالته النفسية المحبطة. كان متعلقاً بالصورة السلبية لطفولته، فقد نشأ تحت تأثيرها. كان من المؤلم بالنسبة إليه أن يقرّ بأنّه لم يغرق في بيئةٍ مؤذية جداً. بالتأكيد لم يكن كلّ شيء ورديّاً: كان قد افتقد الأمان والاستقرار والحياة الطبيعية والراحة؛ فقد عاش في أماكن غير صحيّة، إذ تفوح من السيرك رائحة الروث والعفن والأغطية الرطبة. ولكنّ والداه كانا يشكلان ثنائياً مبدعاً. والآن فقط اكتشف بأنّهما قد نقلا تلك القوّة إليه. كان الكنز تحت أنظاره ولم يكن يُبصره. حينما فكّر في والديه، رآهما يضحكان. كانت هذه أوّل صورة ترده عنهما.

قالت آرميل عازمةً على انتشاله من تكراره المملّ لتلك الأفكار:

- أنا أيضاً قد أكون نموذجاً.

- أنتِ لا ترين صديقتكِ إلا مرّة واحدة في الأسبوع. أنتما لا تعيشان معاً.

- وهل هذا يُخالف قانوناً دوليّاً؟ رأسك مليءٌ بالمبادئ الجامدة وبالحماقات.

أخذ الحديث منحى لم يُعجب فيرجيل. سيطرت آرميل عليه.

قال لها وهو ينظر إلى الوقت على شاشة هاتفه النقّال:

Twitter: @ketab_n

- قطاركِ سينطلق.

استبدّ به الفضول لسماع ما لديها مع أنّه لم يكن من الوارد أن يأخذ بما ستقوله.

قالت آرميل دون أن تعير انتباهاً لملاحظته:

- برأيي، إذا كانت كلّ قصصك الغرامية قد فشلت فهذا لأنّك أحببت هؤلاء النساء لسببٍ وحيد: الأمل في الحصول على حياة طبيعية.

بعد أن ألقى نظرة على فاتورة الحساب، نبش فيرجيل في جيوبه؛ وضع ورقة نقدية تحت طبق فنجانه. طبعاً، كانت على حقّ، ولكنّه لم ينوِ اليوم الاعتراف بذلك.

نزعت صديقته ضمادة عن جرحٍ قديمٍ كان قد التأم. كان يتمسّك بتلك الضمادة، لم يتذكّر أنّه عاش من دونها. في الحياة، نبحر بين الآلام التي يتسبّب بها لنا الآخرون والتي نتسبّب بها لأنفسنا بأنفسنا. وذات يوم نكتشف بأنّ لا فرق بينها.

قالت آرميل:

- هناك مشكلة أخرى.

أغمض فيرجيل عينيه وكأنّ اختفاء صديقته من أمام ناظريه قد يحميه مما تتهيّأ لإخباره به.

- أنت غيور.

قال مسرعاً.

- كلا، على الإطلاق.

- إذاً لماذا لم تطلب قطّ مقابلة آن-إليزابيت؟

Twitter: @ketab_n

- وأنتِ أيضاً لم تطلبي قط مقابلة صديقاتي.

- كنتُ غيورة. أعترف بذلك.

ارتعد فيرجيل سروراً وافتخاراً.

تابعت آرميل:

- لدينا علاقة رائعة، ولكننا لن نكون أبداً معاً. نحن نشكّل ثنائياً لاجنسياً ومكتفياً ذاتياً.

- أي أنّكما ثنائي سعيد.

لحظة تفوّهه بهذه الجملة، أدرك فيرجيل بأنّ لا شيء قد يكون أكثر صدقاً ولكن كان ذلك مشكلة. لحسن الحظ، ستعود الدكتورة زيتكين بعد أسبوعين.

قالت آرميل:

- أودّ أن تسعى إلى التعرّف على المرأة التي أحبّها.

- وأنتِ، أترغبين في التعرّف على كلارا؟

- إن استطعت أن تثبت وجودها، سأكون سعيدة بذلك.

توتّر الحديث وتبعه صمتٌ طويل. تأثّر الصديقان بهذه المكاشفات.

توقّفت شاحنة أمام محلّ الزهور الكبير في زاوية الجادة. كانت الزهور محزومة في حُزَم. وكأن المئات من السجينات الجميلات قد وثقن بسلاسلهنّ. نهض فيرجيل عن الطاولة وذهب إلى بائع الزهور. أعطاه ورقة نقدية وعاد بباقة من عبّاد الشمس. كان يحبّ عدم التناسب بين رأسها وجسدها ورعونتها والبساطة المبهجة لبتلاتها الكبيرة الصفراء.

Twitter: @ketab_n

قال وهو يقدّم الباقة لآرميل:

- هذه لآن-إليزابيت.

ردّت بابتهاج:

- هذا رائع. يمكننا أن نتعشى نحن الثلاثة معاً.

فكّر فيرجيل بصديقته، قائلاً في نفسه، أنتِ رائعة. كان ذكاؤها يشعّ حرفياً على وجهها.

قال:

- دعينا لا نستعجل.

رمت آرميل لعبة تاروت خاصّتها على الطاولة ودفعتها نحو فيرجيل. فظنّ أنّه يستطيع الاستسلام لنزوة جلسة استبصار. سحب ورقةً. في اللحظة التي أراد أن يَقلبها، ضمّتها آرميل بين أوراق اللعبة.

- ألا يمكنني أن أرى أيّ ورقة سحبت؟

- أنت لجوجٌ للغاية.

كانت لدى آرميل القدرة على إيقاف الزمن. كانت تعلّق الحديث وتنظر إلى محدّثها بعينيها الساحرتين وهي تبتسم. لم يكن يُعرَف أبداً إن كانت تفكّر أم أنّها تترك فرصةً للشخص الذي أمامها ليستعيد أنفاسه. خلال لحظة التوقّف هذه، ظنّ فيرجيل أنّهما توأمين غير حقيقيين. كانا يعرفان بعضهما جيداً. يمكنه الاعتماد عليها مثلما يمكنها الاعتماد عليه. كانت آرميل أرضه الصلبة الوحيدة.

قالت أخيراً:

- لستُ متأكّدة من أنّ فكرة البحث عن كلارا فكرة حسنة.

Twitter: @ketab_n

عليك أن تهتمّ بمعرفة سبب عدم تذكّرك لها وليس عن سبب تصرّفها معك بهذه الطريقة. اللغز الحقيقي هو فقدانك لذاكرتك. كيف حدث أن نسيت لقاءك أثناء تلك الحفلة؟

- كنتُ ثملاً.

- ثلاث كاسات من شراب البنش.

لم تدع له آرميل أيّ مفرّ. فقال:

- أعلم: هذا لا يكفي لتبرير هذه الفجوة، هذه الهاوية في ذاكرتي.

كانت محاولة معرفة سبب هذه الظاهرة المقلقة نصيحة جيّدة. لم يكن من الضروري وبالتأكيد لم يكن من المرغوب فيه أن يجري خلف كلارا. كانت آرميل عرّافة حذرة. تذكّر فيرجيل أنّ أورفيوس خسر المرأة التي أحبّها بسبب الاستعجال في ملاقاتها. ولحزنه الشديد، رفض كلّ النساء وانتهى به الأمر ممزّقاً من قبل الفاجرات. ولكنّ كلارا ليست يوريديس، إنّها ليست سلبية ولم تكن تنتظر أن يخلّصها.

نهضت آرميل وفي يدها باقة الزهور. حمل فيرجيل حقيبتها. دخلا إلى المحطة. كان موعد انطلاق قطار آرميل قد ظهر على لوحة الإعلان. رافقها فيرجيل حتى عربتها. كان هناك شيءٌ من اللطف والعفوية في عناقهما دون مقاصد خفية. لم يكونا حينها كأخٍ وأخت وإنّما كفتّين فتيين.

توجّه فيرجيل نحو جادة ماجانتا. كان لديه بعض الوقت ليمرّ على منزله قبل أن يذهب إلى لقاء مود. كان قد ألحّ على المرأة الشابّة ليلتقيا في ذلك الصباح وأخذ إجازة ليومٍ واحدٍ.

Twitter: @ketab_n

تذكّر أن والده قد نبّهه إلى أمرٍ حاسم: أهمية امتلاك أحذية مناسبة. نصحه بأنّ يشتري لنفسه، حينما يمتلك المال، حذاءً (إنجليزياً إن أمكن) يتحمّل الضربات ويمكنه الاعتماد عليه ولا يهترئ، لأنّه بفضل الأحذية المناسبة يمكن للمرء أن يمشي، أن يكون له مكانٌ على الأرض (كان يقول: «إنّه بيت الأقدام») والمشي يساعد على التفكير، ثمّ خلص والده إلى القول: إن أردتَ أن تكون لديك أفكار سليمة، اختر أحذية مناسبة.

في زاوية الجادة وشارع فوبورغ-سان-دوني، اشترى فيرجيل كوباً من الشاي ليأخذه إلى مخبزٍ. لم يضع ظرف الشاي في الكوب وارتشف جرعة من الماء الساخن.

حينما عاد إلى بيته، وجد بطاقة بريدية من والديه. توقّف السيرك في بروفان. أثارت كلماتهما البسيطة المكتوبة على ظهر صورة لبرج سيزار انفعالاته. («البرج ثماني الأضلاع ذو القاعدة المربّعة الذي يعود إلى القرن الثاني عشر» على ما تقول الأسطورة). فتح درجاً كبيراً من الخزانة ووضع البطاقة البريدية في ألبومٍ يحتفظ فيه بكلّ بطاقاتهما البريدية.

كانت زاوية من ملصق السيرك المعلّق فوق الأريكة قد انفكّت. صعد فيرجيل على مسند الأريكة ووضع قطعة من شريطٍ لاصق. كانت توجد على الملصق الأحمر والذهبي صورٌ لحركات بهلوانية ونجوم وخيمة سيرك. كان فيلٌ يمشي على حبل كما لو أنّه بهلوان.

Twitter: @ketab_n

كانت بعض النساء، لا يجدن فيرجيل جذّاباً إلا عندما يعاني من حزنٍ ناجمٍ عن فشلٍ غرامي.

حدثٌ هذا غالباً، كما أنّ النساء الأكثر عصبيةً كنّ يجدنه قوياً حسب ذوقهنّ. وكانت مود لتنال الميدالية الذهبية في المثابرة.

حاولت المرأة الشابّة أن تحدّد الموعد في شقّتها المطلّة على حديقة بوت-شومون. ولأنّ فيرجيل كان قد زار المكان من قبل أثناء الحفلات السابقة، تذكّر السرير الرحب والضخم وسحر الديكور ومعبدها البوذي المصغّر والمروحة الضخمة وباقة الخزامى المعلّقة على نافذة المطبخ. يذهله الحمّام بألوانه وعطوره ومنتوجات الدكتور هوشكا وديبتيك ونوكس وكاتييه، والمراهم بالأعشاب والورد وزبدة الشيا والصوابين بالسفرجل والشامبوان بالصلصال والعديد من العبوات الصغيرة المليئة بالخلاصات الطبيعية والبلسم بالكستناء والشمعة العنّابية وبكرات القطن المعلّقة على المرآة. كان بوسعه أن يظلّ لساعات في ذلك الحمّام النظيف جداً، والمشرق جداً والمهدّئ جداً.

كانت شقّة مود فخّاً عاطفياً. أصرّ فيرجيل على أن يكون اللقاء في مقهى محاذٍ لحديقة لوكسمبورغ.

Twitter: @ketab_n

وكدليلٍ على الحالة الذهنية غير المستقرة لفيرجيل، كان يصل مبكّراً إلى مواعيده (الرفاقية والغرامية والطبية والمهنية). كانت الدقّة في المواعيد خطّاً أحمر لا يتجاوزه؛ ويُضايقه التخلّف عن المواعيد وكأنّ هذا التأخير وإن كان لوقتٍ قصيرٍ لا يمثّل مجرّد خطأ بسيط وإنّما أيضاً خيانة. انهمك فيرجيل منذ فترة في عملية إصلاحٍ كبيرةٍ لذاته قد تجعله أكثر رصانةً، فأخذ يتمرّن على التأخير عن مواعيده؛ آملاً أن يستطيع في مستقبلٍ قريب الذهاب إلى مواعيده بتأخيرٍ مناسبٍ دون أن يكون لذلك عواقب وخيمة.

استفاد على الأقلّ من عصابه النفسي: كان الوصول المبكر يتيح له أن يألف المقهى ويعاين منفذ النجاة. جلس إلى طاولة بعيدة عن البار ليتجنّب النقاش الجاري بين صاحب المقهى وأحد الزبائن وطلب كأساً من الشاي الأخضر.

كان يفضّل منتصف صباحية أحد أيام الأسبوع للاستمتاع بالسعادة البسيطة في الجلوس إلى طاولةٍ في مقهى. يشبه الديكور ديكور صالة طعامٍ قروسطية. تحرسُ أسلحة محاربٍ قديم المدخل وتفصل ستارة من الجوخ الصالة عن المطابخ وتقابل أريكةٌ المدفأة الكبيرة. كتب فيرجيل ملاحظات على منديلٍ ورقيٍّ، متخيّلاً ما سيقوله وكيف سيحصل على رقم هاتف كلارا.

كان كلّ موعد مصدراً للهمّ بالنسبة إليه. يقضي الساعات السابقة على الموعد في الاستعداد له والهياج وإيجاد مواضيع للنقاش. لسوء الحظّ، لم تكن حياته الرتيبة توفّر الكثير من الفُرص الحوارية. كان فيرجيل مقتنعاً بأنّ البشر يخرجون معاً ويتزوّجون

Twitter: @ketab_n

ويشترون أجهزة إلكترونية جديدة ويُنجبون أطفالاً لكي يتزوّدوا بمواضيع للأحاديث الثنائية. في العمق، كان فيرجيل يحبّ بشكلٍ خاصّ الحديث عن النقاش بذاته، عن حريات النقاش وحدوده. مثلما يحبّ أن يصمت ويُراقب ما يفعله الشخص الذي يقابله بصمته؛ إن كان سيعتني به أم سيسارع إلى تجريحه.

تابعت عيون الذكور كلّها دخول مود. كانت ترتدي تنّورة اسكتلندية وجراباً نصفياً أسود اللون وحذاءً ذي كعب، وبلوزة ياقتها على شكل حرف V ولونها أخضر داكن؛ وشعرها يسترسل على كتفيها. توقّفت الصفحات عن التقليب وتجمّدت الملاعق الصغيرة وأوقف الزمن جريانه. انتزع عطر مود فيرجيل من تأملاته. تبادلا قبلات وأخباراً تمهيدية. أسرَّت مود نظرة النادل وطلبت عصير برتقالٍ طازج.

قرّر فيرجيل ألا يتطرّق إلى وضع كلارا في الحال كي لا يعطي الانطباع لمود بأنّه جاء ليستخدمها. كما أراد أن ينزع منها تلك الفكرة التافهة التي استحوذت عليها بأن تنام معه. لتثبيط همّة النساء اللواتي كنّ يحاولن إغواءه، كان فيرجيل يجيد مونولوجين لهما تأثيرٌ جذري. كان الأوّل «هناك أربعة أصناف من الحمام في باريس وليس نوعاً واحداً كما يُعتَقد عادةً». مع نهاية هذه المقولة، لم تكن أيّ امرأة تطلب منه أبداً رقم هاتفه. في حالة مود، قرّر أن يستخدم خطابه الثاني والذي يتناول الموت المبرمج للخلايا. شرب جرعةً من الشاي وحدّثها عن هذه الظاهرة الساحرة: خلايا جسدنا تنتحر باستمرار. ما أن لا تعود قادرة على ذلك، نموت.

Twitter: @ketab_n

خلص فيرجيل إلى القول:

- الأمر الذي يعني أنّ الانتحار خاصيّة الحياة، وهذه مفارقة.

قالت وهي تنحني نحوه:

- هل اتّصلت بي لتحدّثني عن البيولوجيا؟

لاحظ فيرجيل منجدها الذهبي على شكل قلب؛ ثمّ اكتشفت عيناه الجمال الشامل لمود. كان ذلك غباءً، ولكنّه يعلم بأنّ النوم مع مود سوف يعني خداع كلارا. لم يكونا معاً، ولذلك من المفترض أن يكون حرّاً، ومع ذلك كان يعلم بأنّه إذا مارس الحبّ مع امرأةٍ أخرى، سيكون غير وفيٍّ. كان متعلّقاً بتلك المرأة المجهولة. فكّر فيرجيل بأوليس والاختبارات والإغراءات التي تعرّض لها قبل أن يلتقي بينيلوب. رغم نهدَي مود وشفتيها وعينيها ورقبتها، لم ينوِ الاستسلام للإغراء. ثمّ أنّه لو نام معها لكان ذلك مخيّباً للآمال، لأنّه يحتاج إلى بعض الوقت لكي ينجح مع جسد الآخر. حرص كثيراً على بلوغ الكمال فقط ليكتفي بالشقلبات مع امرأة مجهولة.

أخبرته آرميل ذات يوم (كانا يتبضّعان من سوق باربيس تحت المترو المعلّق):

- هي ليست مجهولة. أنت تعرفها منذ سنوات.

- شعورياً، هي امرأة مجهولة.

- الأمر يتوقّف عليك وحدك أن تحاول معرفتها على نحوٍ أفضل.

كان فيرجيل قد فكّر كثيراً ووازن بين القبول والرفض وانتهى به

Twitter: @ketab_n

الأمر إلى الاستنتاج بأنّ العقبة الوحيدة للقيام بمغامرة عاطفية مع مود هو جمالها الفائق. كانت مود إلهة الحبّ، مزيجاً مركّزاً من الشبقية، دعوةً إلى الشبق. كان هناك شيءٌ غريب في أن يقع خيار امرأة بهذا الجمال الخارق عليه. لم ينم معها لأسبابِ عدم ذهابه إلى المطاعم الباذخة نفسها ولأسباب عدم ارتدائه ملابس من المتاجر الفاخرة نفسها: كانت مناسبة جدّاً له. لأوّل مرّة، بدا له هذا الشعور في مفارقته التاريخية. لم يعد ذلك الطفل الفقير المتنقّل من مدينة إلى مدينة في سيركٍ منهوك. كان عدم ممارسة الحبّ مع مود مروقاً وشذوذاً. تلاحقه هذه المرأة الجميلة والذكية منذ سنوات. لم يستجب لمبادراتها بسبب الرومانسية أو الاحتشام المفرط أو الطهرانية. اليوم، كان نادماً على إهدار فرصته في معرفة نعومة بشرتها. استغرق في أحلام اليقظة حول الطريقة التي كانا سيتلامسان بها؛ تخيّل كيف يجرّدها من ثيابها ويقبّلها ويداعبها.

أُتيحت له فرصة ممارسة الحبّ مع مود في عدّة مناسبات (بعد عشاء للأصدقاء في منزلها، حينما اقترحت عليه البقاء لتطلعه على مجموعتها من الأفلام القديمة؛ وبعد حفلة الألعاب النارية في 14 تموز/ يوليو، حينما وجدا نفسيهما تائهين في باريس وكادا أن يستأجرا غرفة في فندق؛ وأثناء جلسة تدليكٍ واسترخاء مع زيت زهر الآذريون)، لكنّ فيرجيل لم يجد قطّ أن إمكانية النوم معها سببٌ كافٍ للإقدام على ذلك. على العكس: كانت السهولة التي يستطيع بها أن يكون في سريرٍ واحدٍ مع مود تردّه عن ذلك. كان فيرجيل بحاجةٍ إلى أن يُدجّن، لأن يعتقد بأنّ المرأة التي تشتهيه لا تريد في

Twitter: @ketab_n

البداية النوم معه، بل الثرثرة والذهاب إلى معرضٍ أو الحديث عن فيلمٍ. كان الجنس التحلية التي تأتي بعد وجبة من أطباقٍ عديدة. كان من نتيجة هذا التصرّف هروب النساء الأكثر استعجالاً والأقلّ عناداً أو النساء اللواتي اعتبرن ابتعاده لامبالاة منه.

طبعاً، كان يعلم ذلك، كان نادماً على عدم النوم مع مود فقط لأنّه سيمتنع عن ذلك بعد الآن. كان هذا الأمر نموذجياً بالنسبة إليه.

مهما يكن الأمر، لم يكن لديهما شيءٌ مهمٌّ مشترك. حتى وإن كانا يلتقيان بانتظام، لم يكونا صديقين مقرّبين: تمضي مود وقتها بإقامة الحفلات والشراب والرقص واستهلاك كلّ أنواع المنتوجات الباعثة على الهلوسة. وهو يريد فقط أن يشرب كأساً معها من حين إلى آخر.

قالت مود:

- إذاً، هل ما زلت تعمل في الإعلان؟

كانت تعرف الجواب؛ ولكنها حاولت أن تنتزع فيرجيل من تأمّلاته وذلك بأخذه إلى أرضية مألوفة. لم يكن فيرجيل يشعر بأيّ خجلٍ من ممارسته لمهنته ومع ذلك راوده شعورٌ بأنّه يعترف حينما أجابها. كانت مود في موقفٍ سيئ لا يسمح لها بأن تؤنّبه: كانت تعمل بيطرية في مختبرٍ صيدلاني ضخم، ولا بدّ أنها تقضي أيامها في تثبيت أسلاك كهربائية تحت أجفان قرود الشمبانزي وإرغامها على ابتلاع عيّنات دوائية مضادة لالتهاب السحايا والبواسير وداء المنطقة. كان هناك نفاقٌ كبير عند الذين ينتقدون الدعاية والإعلان، لأنّهم ككلّ الناس في علاقاتهم الشخصية والمهنية يستخدمون الحيل

Twitter: @ketab_n

والوسائل للجذب والإغراء والربح. الدعاية أساس العلاقات الإنسانية؛ لا نكفّ عن ممارسة دعايتنا الخاصّة.

- لا تُسئ فهمي ولكن لديك أفكار قيّمة، إنّها لخسارة أن تستخدمها في هذا المجال.

شدّدت على كلمة «هذا» لتبيّن له جيّداً دناءة مهنته. كانت تلك المرأة تعذّب الحيوانات وتمضي أماسي أيام السبت في تعاطي إكس تي سي المنشّط وشرب الشامبانيا ومع ذلك تسمح لنفسها بأن تعطيه الدروس. كان فيرجيل يعلم بأنّ نواياها سليمة حياله: كمعظم أصدقائه، لم تكن تعلم لماذا يعمل عند وكالة سفينغالي الإعلانية. لم يكن ذلك يتناسب مع الفكرة التي صاغوها عنه.

قال:

- ربّما سوف أتوقّف عن العمل في هذا المجال.

امتنع عن كشف سبب النزاع الذي يضعه في مواجهة إدارة الوكالة. لم تكن مود الوحيدة التي تحدّثت معه عن تركه لعمله. ولكن ماذا سيفعل لو ترك هذا العمل؟ كانت آرميل تعتقد أنّه يكتب قصصاً جميلة. يمتلك الخيال والأسلوب، سوف لن يكون من الصعب عليه أن يكتب للتلفزيون أو السينما أو المسرح. كان عليه أن يتّخذ قراراً وشيكاً: أن يستمرّ في العمل مع وكالة سفينغالي أو يجد عملاً آخرَ يشتغله في حياته.

أرادت مود أن تفهم لماذا انتهت علاقته مع كلارا. رأى فيرجيل في ذلك فرصة للتخلّص نهائياً من هذه الفتاة التي تربكه في غزلها. ما أن يتجاوز المرء الثلاثينيات من العمر، تصبح المواعيد الغرامية

Twitter: @ketab_n

أشبه بمحادثات تشغيل عمال. يكون المرء قد عاش ما يكفي من القصص الصعبة ليكون حذراً. هذه المرّة، لا يستطيع المرء أن يخدع نفسه ولذلك يطرح أسئلة ويقوم بالتحقيق ويفسّر أصغر إشارة مقلقة، ويكون هدفه واضحاً ويبتاع حاجياته ويرفض دون تردّد الفواكه السيئّة.

تهيّأ فيرجيل لكي يرسم صورة مرعبة عن نفسه. استلذّ بأن يلعب ضدّ الأصول الغرامية.

سألت مود، وهي تصالب يديها تحت ذقنها؛ وتنتظر جواباً رومانسياً:

- كيف كنتَ معها؟

ردّ فيرجيل:

- لم أكن مرتاحاً. الحياة المشتركة ترهقني. هناك الكثير من الجهود التي يجب بذلها.

فوجِئت مود. قطّبت حاجبيها وحدّقت فيه كما لو أنّه تحوّل إلى حشرة بنت وردان ضخمة غير مبالية بصحّتها. تسلّت بمصّاصة الشراب بين لسانها وأسنانها، ثمّ سألته عن العلاقة الجنسية.

قال فيرجيل، خافضاً صوته:

- حتى أكون منصفاً، لقد مللتُ كثيراً. وهي وجدت أنني لا أُطاق.

علّقت مود وهي تأمل أن تحافظ على الصورة الإيجابية في ذهنها عن فيرجيل:

- برأيي، هي لم تُحسن التصرّف.

Twitter: @ketab_n

- أنا المسؤول الوحيد. لقد كنتُ مثيراً للشفقة.

لم تخفِ مود خيبة أملها. اعتبر فيرجيل أن ذلك لا بدّ أن يكون كافياً لتهدئتها. بعد أن ساهم بقسطه في الحديث وكشف عدداً من الأمور، ظنّ أنّ من حقّه الآن أن يطلب معلومات خاصّة بكلارا.

- أتعرفينها منذ زمنٍ طويل؟

- إنّها شقيقة كانتان. هل تعرف كانتان؟

- كلا.

- إنّه صديقي. منذ ما يقارب عشرة أيام، هي طلبت منه أن يخبرني بأنّها قد هجرتك، وأنا نقلت هذه المعلومة إلى فوستين. هذا ما حدث. أنا لستُ سوى مراسلة بريئة.

كانت مود مغرمة. أساء فيرجيل الظنّ. انتصب على كرسيّه وطلب كأساً من النبيذ: كان بوسعه أن يدع الكحول تُحرّره من كبته دون الخشية من الانتهاء في الفندق. كانت الصورة الكارثية التي رسمها عن نفسه تهدّد بملاحقته طويلاً. لم تكن مود من النوع الذي تحتفظ بالأقاويل والثرثرة لنفسها.

قال فيرجيل:

- كنتُ أعتقد أنّكِ تسعين إلى إغوائي.

ابتسمت له مود عاضّةً على شفتها السفلى، كما لو أنّها سقطت في شرك ارتكاب حماقة رائعة وبلا نتائج.

اعترفت مود:

- لطالما عرفتُ بأنّه لن تكون هناك أي مجازفة. كنتَ كصديقٍ مثليّ الجنس، ولكن مشتهٍ للجنس الآخر.

Twitter: @ketab_n

- ألم ترغبين في النوم معي؟

- أنا حزينة.

فكّر فيرجيل في كلّ المرّات التي اعتقد فيها بأنّها تبادر إلى إغوائه. أحسّ بأنّه جرو كلب. كان ذلك مخزياً. كان التحرّش المفتَرَض لمود يمنحه الثقة بالنفس. من الآن فصاعداً، بات يشعر بأنّه ليس مرغوباً فيه أكثر من خروف البحر. كان أكثر إثارة للشفقة مما كان يعتقد. وضع النادل كأس النبيذ أمامه في اللحظة المناسبة. كان بحاجة إليه. بعد جرعتين كبيرتين، استأنف تحقيقه حول كلارا.

- ما رأيكِ بها؟

- لا أعرفها معرفة جيّدة. يهمّني شقيقها، أمّا ما تبقّى من الناس فلا أبالي بهم كثيراً. دماغي تغرق في مادة أندورفين المضادّة للألم.

حاول فيرجيل معها:

- هل تحبّين لون شعرها؟

لو ذكرت تفاصيل جسدية، وإن كانت صغيرة، لتجسّد طيف كلارا قليلاً. ولكن مود لم تلعب اللعبة، وقالت:

- لم أطرح على نفسي قطّ هذا السؤال. حينما كنتما معاً، ألم تخبرك ما هو رأي كانتان بي؟

لمعت عيناها. كانت الحكاية جديدة وطازجة وكانت مود مأخوذة بكانتان.

قال فيرجيل:

- لم نتحدّث عنكِ ولا عن شقيقها.

لم يكن يعرف اسم عائلتها ولا عنوانها ولا رقم هاتفها. كانت

Twitter: @ketab_n

كلارا في متناول اليد ولكن من غير الممكن الوصول إليها، كما في تلك الأحلام التي يحاول فيها المرء الإمساك بشيءٍ دون أن يصل إليه أبداً.

قال مغموماً:

- وماذا يعمل كانتان العجيب هذا في حياته؟

- يكتب كتباً للأطفال.

كتبت قائمة بخمسة عناوين واسم دار النشر. تحدّثا في أمور مختلفة. تحدّثت مود عن كانتان، عن رغباته في تبديل المنازل وفي الأطفال، وتحدّث فيرجيل عن احتمال تغيير مهنته.

افترقا.

نزل فيرجيل جادة سان - ميشيل وسلك طريق راسين إلى أن وصل إلى مكتبةٍ. عرف صاحب المكتبة اسم عائلة كانتان من خلال عناوين الكتب. لم يعد هناك سوى أن يبحث عن عنوان كلارا في الدليل السنوي. أمّا بخصوص ما سيقوله لها حينما يصبح أمامها، لم تكن لدى فيرجيل أيّ فكرة وفضّل ألا يفكّر في ذلك.

Twitter: @ketab_n

وصل فيرجيل إلى العمارة رقم 9 في جادة بيرير. كان الرقم منقوشاً فوق الباب الضخم المنجور ذي الصفائح المسمّرة. كان المهندس المعماريّ قد علّم المبنى بقناعٍ محفورٍ غريب، رأس أسدٍ محفور في الصخر. كان أحدهم يتدرّب على تمثيل مسرحية من أجل أطفال بارت. ك في الطابق الثالث، وكانت النافذة مفتوحة. كان المارّة النادرون في ذلك الشارع الرئيس الهوسماني يرتدون ثياباً أنيقة، وشعورهم مصفوفة جيّداً، ويسيرون باستقامة وذقونهم مرفوعة قليلاً. كان فيرجيل، وهو يتجوّل في باريس، يحبّ الحركة والحشود وأرصفة المقاهي وموسيقيي المترو. ولكنّه شيئاً فشيئاً، اكتشف في نفسه ميلاً إلى هدوء الأرصفة الخالية حيث لا خطر في أن يصادف أحد أصدقائه أو شخصاً يرغب في أن يصبح صديقاً له.

جاء يوم العطلة ذاك في الموعد المضروب. شعر فيرجيل بأنّه هاربٌ من المدرسة.

كان لناطور العمارة لحية طويلة بيضاء ويقف مقوّس الظهر. أخبر فيرجيل بأنّ كلارا قد نقلت سكنها من المبنى. من جهة أخرى، كانت الشقّة للإيجار؛ فعرض فيرجيل على ناطور البناية أن يزور

Twitter: @ketab_n

الشقّة المخلاة. كانت في الطابق الثالث وهو الطابق المفضّل لدى فيرجيل، فهو عالٍ بما فيه الكفاية لكي يتجنّب الضجيج الصادر عن حركة مرور السيارات، وهو واطئ بما فيه الكفاية لكي يحمي نفسه من الدوخة والغثيان.

وهكذا، هربت كلارا مرّة أخرى وكأنّ من طبيعتها ألا تكون قابلة للإمساك بها. فكّر فيرجيل بسباقات الكلاب السلوقية وبذاك الأرنب المزيّف الصاعد على خطوط السكك الحديد والذي يثير جري الكلاب الهائجة نحو خطّ النهاية.

تساءل إن لم تكن كلارا طُعماً يُرغمه على التصرّف والتفكير.

أحبطه انتقال كلارا وأراحه في آنٍ واحد. كان محبَطاً لعدم اكتشافه الشخصية التي دسّت له هذه الهُرجة وفي الوقت ذاته، كان مرتاحاً لأنّ الحكاية لم تتوقّف ولأنّها احتفظت بحيويتها وسرّها المشوّق. بداهةً، شعر بأنّه لا يزال من المبكّر جداً إغلاق هذا الكتاب؛ كانت به رغبة ملحّة في أن يُكمل هذه المغامرة العاطفية. وأخيراً، تبيّن له بأنّه يخاف من لقائها، يخاف من أن يُصاب بالإحباط، يخاف من أن يخيّب أملها.

كانت الشقّة فارغة؛ لم يتبقَّ فيها أيّ أثاث، كان الانتقال قد جرى بطريقة مثالية. وكأنّنا أمام مشهد جريمة كاملة، حيث لا جثّة، ولا أدلّة وبطبيعة الحال ليست هناك أيّ بصمات. كانت هناك آثار مربعّات بيضاء على الجدران الرمادية الأمر الذي دلّ على وجود لوحات وإعلانات سابقة معلّقة عليها، وثقوب دائرية أُعيد سدّها بالطلاء تشير إلى مكان رفوفٍ. لاحظ فيرجيل آثار أرجل السرير على

Twitter: @ketab_n

أرضية الغرفة وظلّ خزانة على الجدار وشبح غبار مرآةٍ. من خلال هذه النسخ السلبية للصور، أعاد تكوين ترتيب الشقّة. شمّ الزوايا الأربعة لصالة الاستحمام بحثاً عن ذرّات العطر ولكنّ الشقّة كانت قد نُظِّفَت بماء الجافيل وتمّت تهويتها؛ وظلّت الخلايا الشمّية عند فيرجيل على جوعها.

كان فيرجيل مندهشاً. تخيّل بأنّها لا بدّ أن تسكن مكاناً أكثر لباقةً من الناحية السياسية والاجتماعية. لم يكن قد أحبّ قطّ فتاة تقيم في منطقة برجوازية مثل هذه. حتى لم يكن له أيّ صديقٍ يُقيم فيها. كان عالماً مختلقاً. كيف يمكن لشخصٍ يقلّ عمره عن ستّين عاماً أن يسكن في هذه المنطقة؟ ربّما كانت الشقّة مُلكاً لجدّتها الريفية، ربّما كانت تعيش مع شريكة في الإيجار، ربّما كانت حسّاسة جداً بحيث لم تتحمّل الضجيج وصخب الناس. كان سعيداً لكونها لا تشبه المرأة التي تخيّلها. تعاكس التصورات الجاهزة والأحكام المسبّقة. راق له ذلك.

- كيف كانت شريكتها في الإيجار؟

متذمّراً بسبب وقته الذي أهدره فيرجيل، شرح له ناطور البناية بأنّه يعتني بثلاث عمارات، تضمّ كلّ واحدة منها حوالي عشرين شقّة تعيش فيها أحياناً أسر عديدة. يقيم في هذه الشقق أكثر من مائة شخص ويعرف على نحوٍ خاصّ الذين يثيرون مشاكل.

أوضح الناطور:

- أولئك الذين لديهم كلابٌ ضخمة والذين يشغّلون الموسيقى بصوتٍ عالٍ.

Twitter: @ketab_n

برطم الناطور للدلالة على تذمّره وأعطاه المفاتيح ونزل من الشقّة. ظلّ فيرجيل لبعض الوقت يتجوّل في الشقّة. تنشّق نسمة هواء وحبسها في رئتيه، كما لو أنّه يفعل ذلك مع حشيشة الكيف ليستمتع بفضائلها. تمدّد في المكان الذي كان يوجد السرير فيه، التفّ وقام بحركةٍ كما لو أنّه يحتضن أحداً بين ذراعيه؛ شدّ الكائن غير المرئي إليه بقوّة وحنان. فتح فمه ومرّر لسانه على أطراف شفتيه. سرت حرارة شديدة ومشعّة في جسده، وكأنّ الكائن الذي يحتضنه بين ذراعيه قد دبّت فيه الحياة؛ ارتعش واكتشف أنّه ينعَظ. انتزعه اكتشاف الانتصاب من تخيّلاته الخادعة.

Twitter: @ketab_n

عاد فيرجيل إلى بيته منهكاً ومحبطاً، وارتمى في الأريكة. وضع بطاريات في مذياعه المنبّه. أشعرته الأصوات الرخيمة والأليفة بالطمأنينة. شغّل الصحافيون مصنع الأخبار؛ بثّوا فيه الحرارة: كانت الفائدة الوحيدة من أقوالهم وقائية. حسب آرميل، يستخدم الصحافيون ومعاهد استطلاعات الرأي ورجال السياسة أنماطاً من الأفكار والخطابات المستعارة من التنجيم والسحر. وليست الشروحات والتفسيرات الاقتصادية سوى تنبؤات وصلوات مستجابة. أغمض فيرجيل عينيه؛ رآهم خلف لواقط الصوت يعتمرون القبّعات المدبّبة للمشعوذين وبأيديهم العصا السحرية. أفرغ ما تبقّى في قعر القارورة من نبيذ الفوجير في كأسٍ. لم يكن هناك شيءٌ آخر ليشربه كما لم يكن هناك شيءٌ ليأكله. بدت الشقّة وكأنّها مهجورة.

لا بدّ أن تكون آرميل بين ذراعي آن-إليزابيت. تخيّلهما تتنزّهان على معبر ميمرام بين فرنسا وألمانيا أو بين صفٍّ من المقاعد في حديقة نباتية. هذه الفكرة هدأته وخفّفت عنه. رجّ النبيذ في كأسه.

دار مفتاحٌ في قفل باب المدخل. نهض فيرجيل من على الأريكة، فزعاً؛ كبّ النبيذ على الأرض. دخل رجلٌ في بزّة رسمية

Twitter: @ketab_n

وفي يده جرزة مفاتيح؛ تسير سيّدتان بشعرٍ غزيرٍ خلفه وهما تتحادثان وتدخّنان. بعث تفاجؤهم باكتشافه في وسط الصالون ولامبالاتهم الطمأنينة في فيرجيل. لم يكونوا لصوصاً.

سأل فيرجيل:

- ماذا تفعلون هنا؟

تحاشى الرجل بركة النبيذ على الأرض وأجاب وهو يقلب المفاتيح بين أصابعه:

- أنا أعاين الشقّة.

- لا بدّ أنّ هناك خطأ في الأمر.

توزّعت السيّدتان في الشقّة. كانتا تعاينان الأمكنة وتقيّمانها وتمرّران أيديهما على ورق الجدران وتنظران إلى الشقوق في السقف وتدقّقان في نوعية الزجاج المزدوج للنوافذ وحالة أرضية الشقّة وشبكة التمديدات الصحيّة. كان الرجل واثقاً من حقّه في انتهاك حرمة مكانٍ خاصّ. لم يُظهِر أيّ ضيقٍ. تضايق فيرجيل كثيراً وكأنّه استحال إلى عدمٍ. صرخت إحدى السيّدتين حينما فتحت باب الثلاّجة. لم يكن فيرجيل قد أفرغه بعد. كانت رائحة التفسّخ شنيعةً.

همس الرجل بصوتٍ خفيضٍ بحيث لا تسمعه السيّدتان:

- مات المستأجر السابق.

قال فيرجيل:

- أنا لم أمت. كنتُ مخطئاً.

لحظة المفاجأة لن تدوم. كان الدلّال العقاري مهتماً بتأجير الشقّة وقبض عمولته، ولا أهمية لبقية الأمور.

Twitter: @ketab_n

قال الدلّال:

- هذا لا يُغيّر في الأمر شيئاً، لقد فُسِخَ عقد الإيجار.

كان فيرجيل قد نسي أن يُعلِم مالك الشقّة عن «شفائه الإعجازي» ويطلب منه بألاّ يأخذ رسالة الفسخ التي أرسلها إليه بالحسبان. بعد أن دفع سلة الفاكهة جانباً، فتح الدلّال العقاري صندوقه الصغيرة على الطاولة وأخرج منه ورقة.

قال وهو يعطي الورقة لفيرجيل:

- لدي الوكالة التي تخوّلني تأجير الشقّة. بقي لديك شهران لتخلي الشقّة.

- تبّاً.

كانت السيّدتان راضيتين عن الزيارة. حاولتا إخفاء ذلك تحت ثيابهما المحتشمة، ولكنّ فيرجيل أدرك بأنّهما كانتا عاهرتين. لا بدّ أنّهما ستوافقان على استئجار الشقّة مقابل مبلغٍ كبير. خرج الدخلاء. اتّصل فيرجيل بمالك الشقّة ولكن عبثاً فقد رفض العودة عن فسخ العقد. للحظة، فكّر فيرجيل في أن يستأجر الشقّة التي أخلتها كلارا. ولكن هذا سيفاقم حيرته واضطرابه ولا شكّ أن المرحلة المقبلة سوف تكون مستشفى الأمراض النفسية. سيكون عليه البحث عن شقّة جديدة لكي يستأجرها.

غابت الشمس. بحث فيرجيل، كيفما كان، عن الخوذة الكشّافة. أضاء المصباح الجبهي. كان يعاني من صداع؛ فتمخّط. كان فلييس، وهو أحد الأطباء الأثيرين عند عالم النفس فرويد،

Twitter: @ketab_n

وكان يستخدم الكوكايين من طريق الأنف لتخفيف الكثير من الآلام، يعتقد بأنّه على غرار النساء، لدى الرجال دورة شهرية منتظمة تتجلّى أعراضها بآلامٍ في الرأس وبسيلانٍ من الأنف. ولم تبدُ هذه الفرضية عديمة المعنى بالنسبة إلى فيرجيل.

تكوّر فيرجيل على نفسه في الأريكة لكي يفكّر في كلارا، الشيء الوحيد المثير والحقيقي في حياته. جهد لكي يستغرق من جديد في ذكرى سهرة لقائهما معاً. تراءت له عمارة شارع بيرنيتي قرب مبنى البريدو والبقّال الذي اشترى من عنده زجاجة من النبيذ، حيث تتّكئ مود على حرف نافذة المطبخ وفي يدها علبة من البيرة ذات سعة خمسمائة سنتيلتر بينما ترقص ناديا مع خطيبها على كومو ديزيا أو بويتا، ووجوهٌ واضحة لأناسٍ مجهولين، والضباب الناجم عن التدخين وأقدامٌ كانت تدوس على قدميه. ولكنّ ذاكرته لم تلمح سوى طيف كلارا وسط الصخب والضجيج المتصاعدين. تذكّر أنه تحدّث إلى الكثير من الأشخاص وسكب لنفسه كأساً من النبيذ واقترض سيجارة من فوستين. ولكن ما أن دخل إلى المقطع الذي التقى فيه مع كلارا، ملأ ضوءٌ إطار الباب وحجب عنه الرؤية.

ربّما أراد دماغه أن يحتفظ لنفسه بهذه الدقائق القليلة لكي يحميها؛ ربّما أراد أن لا تتجابه هذه الذكرى مع عنف العالم وتبقى سرّاً إلى الأبد.

تجوّل أمام محطّة الشمال. كما لو أنّه يتصفّح الدليل الشامل للأنوثة، تمعّن في كلّ امرأةٍ مرّت به، نساءٌ سمراوات، شقراوات صهباوات، نساءٌ يرتدين التنانير وأخريات يرتدين بناطيل جينز، نساءٌ

Twitter: @ketab_n

يعتمرن القبعات وأخريات يضعن حجاباً أو وشاحاً، نساءٌ يحملن في أيديهنّ حقائب متنوّعة؛ نساءٌ ينتعلن أحذية ذات سيقانٍ طويلة وأخريات يرتدين صنادل أو أحذية رياضية؛ تعطّرت بعضهنّ وتبرّجت أخريات باحتشام، عيونهنّ زرقاء وخضراء ورمادية وبنّية وبلونين مختلفين لكلّ عين، تحميها نظّاراتٌ شمسية أو عدساتٌ لاصقة؛ كنّ بقاماتٍ وأعمارٍ مختلفة. أمِل فيرجيل أن يذكّره تفصيلٌ ما بكلارا. ولكن الوجوه لم تثر في ذاكرته أيّ شيء.

لم يتمكّن من لقاء كلارا وعلى نحوٍ غريب كانت النساء الأخريات هنّ من يفقدن يوماً بعد آخر حقيقتهنّ. لم يعد يرجع إلى مكان مرورهنّ ولم يعد يُعجَب بأشكالهنّ وحركاتهنّ وحركة شعرهنّ. حتى النساء التي سبق له وأحببهنّ لم يعدن قريبات إلى قلبه مثل كلارا تلك التي لا يعرفها. كان وجه كلارا أقلّ غموضاً من وجوه عشيقاته السابقات. كان قد عانق الكثير من النساء اللواتي كانت حتى كلماتهنّ ومشاعرهنّ غامضة ومشوّشة. كان عدم رؤية كلارا أكثر معنىً وحضوراً من رؤية النساء الأخريات.

كان فيرجيل يعتقد بأنّ الذاكرة مهنة، وقد أدرك اليوم بأنّها فعلٌ. كان هناك الكثير من الأمور التي لم يسجّلها، كما لو أنّه قد قصّ الواقع بمقصٍّ لكي يمنحه شكلاً يناسبه هو. كانت تلك طريقة فعّالة لجعل العالم مريحاً ولتبرير خياراته.

لم يكن قد نسي لقاءه مع كلارا فحسب، بل كان يتذكّر على نحوٍ شنيع كل ما تبقّى من حولها كتلك الحفلة وأولئك الناس الذين لا فائدة منهم. كان العرض المرضي يكمن هنا بالذات: لقد ألغى

Twitter: @ketab_n

الشيء الوحيد المهم الذي عليه أن يراه ليحفظ تفاصيل عالمٍ وحياة لا أهمية لهما ولا يبالي بهما.

استبدّت به دوخةٌ، فجلس على مقعدٍ في الجادّة. لم يكن قد تناول طعاماً منذ أن تناول الفطور مع آرميل. رفع يده لكي يوقف سيارة أجرة. بعد ذلك بعدّة دقائق، جلس إلى طاولة في مطعم فو دونغ هو أونغ وطلب طبقاً من حساء الشعرية.

Twitter: @ketab_n

صباح يوم الجمعة، بينما كان فيرجيل يدخل إلى مكاتب سفينغالي، سلّمه موظّف الاستقبال مغلّفاً. كانت الرسالة، المكتوبة بوساطة الآلة الكاتبة على ورقةٍ صوفية اللون وسميكة، تطلب إليه بلهجة أبوية حنونة أن يوافق على الترقية وزيادة الراتب. كان كاتب الرسالة، وهو مدير الموارد البشرية في الوكالة، يمزج في لهجته مجاملات تخصّ العمل المنجز مع تهديدات مبطّنة في حالة رفضه للمقترح. كان يذكّر فيرجيل بأنّه قد منحه وظيفته الأولى رغم افتقاره للخبرة والشهادات اللازمة لذلك.

كان فيرجيل يجهل ما سيفعله من دون وكالة سفينغالي (من دون أن يكون متفائلاً، تخيّل نفسه محاسباً أو بائعاً أو كنّاساً للشوارع)، ولكن أن يُقال له بأنّ عليه أن يكون مسؤولاً كان يغيظه إلى أقصى درجة. لقد حاولوا أن يمارسوا عليه الضغط من خلال عرفانه بالجميل والاحترام الذي يكنّه لوكالة سفينغالي ولمدرائه فيها. مزّق فيرجيل الرسالة واستقلّ المصعد.

كان مستعجلاً للجوء إلى العمل، إلى ذلك العالم المدهش للجهد الذي تتمّ مكافأته. يسمح العمل للمرء أن يصل إلى حالة

Twitter: @ketab_n

انعدام الوزن؛ إذ لا يعود للجسد أيّ وزن، ولا يعود الموت موجوداً ويسيطر المرء على عالمه الخاصّ.

دخل فيرجيل إلى قاعة الإبداع حالماً بالاستمتاع بالهدوء والعزلة وبعبوات اللبن خاصّته. ولكنّ المقاعد الستّة المحيطة بالطاولة كانت مشغولة بمتدربين وكان جزءٌ من الشباب يحرس الوكالة. وكان المكان الوحيد الشاغر يقع في طرف الطاولة. توجّهت الوجوه كلّها نحو فيرجيل وهبّت موجة من تحيّة الصباح. قدّم له متدرّب طويل القامة ونحيل كوباً من الماء. بدا واضحاً أنّ اجتماعاً قد جرى إعداده وكُلِّف فيرجيل بإدارته. كانت الإدارة، ربّما سيمون، تسعى إلى لَيّ ذراعه وفرض منصبه عليه. ضغط فيرجيل بإصبعه على مسند الكرسي وتهيّأ للحديث ولكنّه تنهّد وخرج من القاعة. أخرجت سيمون رأسها من مكتبها، لم يردّ على ندائها وغادر المبنى.

كانت معلوماته الخاصّة بالعمل النقابي شبه معدومة. لم تكن لدى العاملين في السيرك نقابة لتدافع عنهم ضدّ مضايقات الشرطة وفظاظات البلديات. لو أنّ فيرجيل أراد أن يبقى وفيّاً لإرث السيرك لذهب إلى المبنى رقم 33 في شارع فينول في الدائرة العشرين في مقرّ الاتحاد الفوضوي. ولكن في تصوّره، كانت نقابة الاتحاد العامّ للشغل أفضل نقابة حتى في قيادة الكفاح الذي أُعلِنَ عنه (تذكّر مقالات كُتِبَت حول سواعده القويّة التي لا تتردّد في استخدام القضبان الحديد واللوالب والبكرات لمواجهة أرباب العمل وميليشياتهم). أدرك فيرجيل ذلك، كان فيرجيل يتصرّف كمستهلكٍ

Twitter: @ketab_n

بإعطائه الأولوية لمنتوجات ماركة يعرفها: الرمز الأحمر يجسّد النموذج الأصلي للنقابة على الطريقة الفرنسية.

مكاتب النقابة تقع في بداية جادة لا فيليت. وكانت العمارة ذات الزوايا، الرمادية، ذات الواجهة العارية، ناجمة عن حلم مهندسٍ معماريٍّ، دماغه مجرّد من الجهاز الحوفي. لم يُغيّر الديكور الداخلي منذ سبعينيات القرن العشرين. شكّلت الأرائك البرتقالية اللون والمكتب الأخضر التفاحي والمشمّع البنّي الممدود على الأرض جمالية لا تعدم سحراً. حضر فيرجيل إلى مكتب الاستقبال. خلف المكتب المصنوع من الخشب المعاكس الأرجواني اللون، كانت ثلاث نساء يرددن على الهاتف ويتحدّثن بلباقة وتهذيب. شرح فيرجيل أنّه يواجه نزاعاً مع صاحب عمله. فنصحنه بأن يراجع الوحدة النقابية في مؤسسته. فأجاب بأنّه ليس هناك مندوبٌ نقابيٌّ في مكان عمله. نظرت موظفات الاستقبال إليه، متأسّفات. ملأت واحدة منهنّ استمارة ورقية بالمعلومات التي زوّدهنّ بها.

كانت منحوتة خشبية ضخمة تجسّد مظاهرة هايماركيت شيكاغو الأسطورية تنتصب وسط قاعة الانتظار. تسلّى فيرجيل بتقليب صفحات مجلّة النقابة ومختلف انحرافاتها الفئوية. مع أنّهم أحسنوا استقباله، إلا أنّ فيرجيل لم يكن مرتاحاً. كان لديه شعورٌ بالعدوان: لقد ساندت النقابة الغزو السوفيتي لهنغاريا: لو علم والدا فيرجيل وأصدقاؤه بما أقدم عليه فيرجيل، لشقّ عليهم ذلك. لكي يتحرّر من توتّره واضطرابه، ركّز الرجل الشاب على مطالعته. كانت المجلّة تتحدّث عن النضالات الأخيرة واحتلال المصانع

Twitter: @ketab_n

والانتصارات المتحققة. ردّد في نفسه بأنّه قد أحسن الاختيار في مجيئه إلى هذه النقابة كما لو أنّه يردّد تعويذة، بعد اثنين وثلاثين دقيقة، نودي عليه.

دعته امرأة ترتدي بنطالاً من المخمل الأسود وقميصاً نبيذيّ اللون، وعلى صدرها بروش على شكل نحلة للدخول إلى مكتبها. قرأت البطاقة التي تعرض بإيجاز وضع فيرجيل. على الحرف الخارجي للنافذة، كانت ورودٌ حمراء في مزهريةٍ قد بدأت تفقد بتلاتها.

كانت المرأة تُمسك بين يديها بكراس قانون العمل وحزمة من الأضابير المليئة بالأوراق؛ وضعت نظارتها وبدأت تتفحّص الأوراق: كان صاحب عمله ملزماً بأن يزيد له راتبه، ذكرت اتفاقاً جماعياً وتحدّثت عن تنظيم فرعٍ نقابيّ في الوكالة.

قاطعها فيرجيل:

- أعتقد أنّكِ تسلكين الطريق الخطأ.

نظرت إليه من فوق نظارتها. كانت حياتها عبارة عن سلسلة من المواعيد مع موظّفين مجازين، يتعرّضون لمضايقات أو يتقاضون رواتب خفيضة وقد سرّها أن تلوّح ببطاقة فيرجيل، متأكّدة من أنّها قد أمسكت بالمشكلة. قرأت البطاقة بانتباهٍ وتركيز وهي تمسك بها بأطراف أصابعها.

قال فيرجيل:

- يُريدون أن يمنحوني ترقية وظيفية وأن يزيدوا راتبي.

Twitter: @ketab_n

تغيّرت ملامح وجه السيّدة. زالت الجدية المهنية عن قسمات وجهها لتترك مكانها للتعب والإعياء. رفعت نظارتها وتراجعت في أريكتها إلى الخلف ومسحت وجهها.

- أنت تعلم أنّ غالبية الناس سيكونون سعداء بهذا.

شعر فيرجيل بأنّها تعتبره مضيعة للوقت والطاقة وأنّها تتمالك نفسها لكي لا تطرده من مكتبها.

- إذاً فليعطوا زيادة راتبي لغالبية الناس.

- هذه فكرة ممتازة ولكنني لا أعتقد أنّها تنتمي إلى العصر الراهن. في أيّ حال، سوف لن تساعدك النقابة على رفض زيادة في الراتب.

رغب فيرجيل في أن يضرب بقبضته على الطاولة، قال:

- ولكن هذا من حقّي.

- على أيّ كوكبٍ تعيش؟ أليست لديك مشاكل مادية؟ استغلّ هذه الفرصة. طلبك يُصدمني.

وجد فيرجيل نفسه على الرصيف، مرتبكاً. مرّر يده بين شعره الدهني والرطب.

رفع ياقة سترته ومشى حتى بلغ موقف الحافلة.

منذ وصوله إلى باريس، حاول أن يعيش حياة طبيعية لكي يتحاشى الاقتلاع والهموم التي عاشها في طفولته. وقد نجح في أن يقتنع ويُقنِع الآخرين بأنّه قد اندمج في المجتمع ولم يعد طفل المهرّجَين المتجوّلَين. ولكن الموظّفة النقابية كانت على حقّ، لم

Twitter: @ketab_n

يكن سويّاً. كانت علاقته بالآخرين وارتباطاته العاطفية ومهنته، وحتى المكان الذي يقيم فيه، كان كلّ شيء في حياته غريباً.

الحقيقة هي أنّه، منذ سنوات عديدة، قد بذل جهوداً يائسة لكي يصل إلى حالة طبيعية، ولكنّه كان في أعماقه مزدرياً لوضعه. لقد سقط القناع ولم يحزن لذلك.

Twitter: @ketab_n

يوم السبت، عند الفجر، أوقِظَ فيرجيل من نومه على قرقعة الأبواب التي خرجت من مفاصلها ومن الأقفال المتكسرة. صعد الضجيج من طابقٍ إلى آخر. استيقظ فيرجيل تماماً حينما تساقطت لوالب باب شقّته على بلاط المدخل مصدرةً رنيناً. ظهر شرطيان، رجلٌ وامرأة، في غرفته؛ كان الرجل يمسك بمصباحٍ جيب بينما تحمل المرأة سلاحاً. كانا يرتديان بلوزات كحلية اللون ويحملان شارات على أكتافهما.

- صباح الخير.

لم يجد فيرجيل ما يقوله سوى عبارة التحية هذه. قطّب عينيه بسبب شعاع الضوء المسلّط على وجهه.

كفّ عن فهم أيّ شيءٍ في حياته. لم يُفاجئه أن تحضر عناصرٌ من الشرطة إلى غرفته. لم يكن الأمر سوى خبر جديد يجب إضافته إلى قائمة الأخبار.

أخرج رجل الشرطة ثياباً من صندوق سالوميه الكرتوني ورماها إلى فيرجيل وأمره بأن يرتديها. غمغم الرجل الشاب بأنّ هذه الثياب فضفاضة جداً وفاقعة الألوان وأنّها لا تخصّه ولا تناسبه. لطمه

Twitter: @ketab_n

الشرطي على رأسه. ارتدى فيرجيل بنطالاً أحمر اللون مطرّزاً بنجومٍ مفضّضة وقميصاً فضفاضاً بألوان قوس قزح.

كان الضغط الإيقاعي للأحذية الرياضية على الدرج والأرضية يهزّ العمارة؛ بدت الأساسات متداعية والجدران آيلة للانهيار. كان ما يقارب أربعين شرطياً يتحرّكون في الممرات وعلى سلالم العمارة. يُخلون العاهرات وزبائنهنّ ويقيّدوهنّ. وكان رجال الشرطة يردّون على الصيحات وصرخات الاحتجاج بالضرب والشتائم والإهانات. توزّعت الحشود المرقّشة على أربع عربات مركونة أمام المحطّة. كان الصباح باكراً ولم يكن هناك مارّة في الشوارع ولا تزال ستائر المحلات التجارية مسدلة وأضواء الشقق مطفأة. وحدها التماثيل الضخمة لواجهة المحطّة والتي يمثّل كلّ منها مدينة كبيرة من المدن التي تقصدها القطارات شاهدةً على ما كان يجري: شاهدت بروكسل ولندن وبرلين ووارسو وأمستردام وفيينا تشاهد عاجزةً حملة الشرطة. كان متسكّعون ينامون أمام المحطّة.

بينما كان رجال الشرطة يدفعونه أمامهم، حاول فيرجيل أن يشرح لهم بأنّه ليس معنياً بهذه القضّة. ولكن شرطيّاً زاد من ضغط القيود على معصميه. في العربة، ناح بعضهم وبكى بعضهم وصاح آخرون ببراءتهم. لم تكن لفيرجيل أيّ فرصة ليُسمِعَ صوته ويشرح موقفه؛ فاستسلم للارتخاء على كتف جارته في الطابق الثالث، الأفريقية ذات الشعر المستعار الأبيض اللون. انتحب رجلٌ بين ذراعيّ متنكّراً في ثياب امرأة. كان الجميع مصعوقين لعنف التدخّل. معظم العاهرات وزبائنهنّ كانوا يرتدون ثياباً مبتذلة؛ فبالكاد ارتدوا

Twitter: @ketab_n

مئزراً، بنطالاً بلا حزام، أحذية بلا جوارب، سترة مرمية على الأكتاف العارية. انطلقت العربات. نظر فيرجيل إلى محطّة الشمال وهي تتوارى عبر النافذة المشبّكة. بدت تماثيل الواجهة وكأنّها تحيّيه.

ظلّت صفّارات إنذار المركبات صامتة كما لو أنّهم أرادوا أن تبقى الحملة سرّية، لا بدّ أن المسألة كانت خطيرة، لأنّه لم يتم اقتيادهم إلى مفوضيّة الشرطة في الدائرة وإنّما إلى مقرّ الشرطة القضائية. كانت الباحة المبلّطة الواسعة تضمّ نحو عشر سيارات شرطة وبعض المركبات المقفلة المبتذلة وسيارة إسعاف. كان الصباح بالكاد قد حلّ وكانت الأضواء في الباحة لا تزال مُنارة.

فتحت عناصر الشرطة أبواب العربات وقسّمت الموقوفين إلى مجموعات: من جهة، العاهرات ومن جهة أخرى، الزبائن. أمَر شرطيٌّ العاهرات أن يتبعنه إلى مبنى لإجراء التحقيق. سوف يتمّ إبعاد الأجنبيات اللواتي ليست لديهنّ وثائق ثبوتية؛ وستُعاقَب بنات البلد بفرض غرامة مالية عليهنّ. حينما توارت العاهرات عن الأنظار، تحدّث ضابطٌ إلى الزبائن. يبدو أنّ تنزيل الرجل للباسه الداخلي أقلّ عقاباً من فتح المرأة لفخذيها، فقد قيل للزبائن بأنّهم طُلقاء ويمكنهم أن يغادروا. خرجوا عبر الرّواق، بعضهم ببطء وآخرون بسرعة أكبر، وقد أمسكت يدٌ بالبنطال أو القميص الذي تتلاعب به الرياح.

ظلّ فيرجيل وحيداً وسط الباحة. بعد أن جُرّد من رفاقه، شعر بأنّه عارٍ. لم تعد المجموعة تحميه من الأنظار. نظر إليه رجال

Twitter: @ketab_n

الشرطة وعلّق بعضهم على قميصه القوس قزحي وبنطاله الفضفاض المطرّز بالنجوم وهيئته التائهة وضحك بعضهم.

أشرقت الشمس. كان ذلك أوّل يومٍ حقيقي يشعر فيه ببرودة الخريف. سرت قشعريرة في جسم فيرجيل؛ فعطس. تفرّقت عناصر الشرطة، شيئاً فشيئاً وعادت إلى ممارسة مهامها. نبش فيرجيل في جيوبه ولكنّه لم يعثر لا على ذُرارة الشاي الأسود ولا على مزيل القلق.

ظلّ على حاله هناك لدقائق طويلة. تذكّر آخر درسٍ له في اليوغا، وخفّف من تنفّسه. مدّ صدره وذقنه نحو السماء الزرقاء الصافية. أثار البرد تشنّجاتٍ في عضلاته. شرّ أنفه. استغرق في التفكير وهو يحصي نوافذ العمارات. ثمّ تركّزت أنظاره على الأسطح. كان يشغل ذهنه لكي لا يستسلم للذعر الذي يكمن له.

وأخيراً جاءت ضابطة شابّة برتبة نقيب تبحث عنه. لم تكن الأنظمة تسمح بالنزوات في التزيين، فكانت تضع فقط قليلاً من أحمر الشفاه وتضع ألماسات محتشمة في أذنيها. وبخلاف عناصر الشرطة الذين نفّذوا الحملة، لم تكن أساليبها فظّة. اقتادته إلى غرفةٍ صغيرة فارغة وتركته تحت حراسة شرطيّ ودخلت إلى مكتبٍ. ولأنّه لم تكن هناك مجلات، قرأ فيرجيل إعلانات تجنيد الشرطة الوطنية والرسائل الإعلامية المتعلّقة بالمخدّرات وعمليات الخطف. كانت صور مجرمين مطلوبين لدى الشرطة معلّقة أيضاً. لم يستطع فيرجيل أن يمنع نفسه من اعتبارها فعّالة وكاريكاتورية في آنٍ واحد؛ فالملامح فيها قد شوّهت نتيجة تعريضها للإضاءة المفرطة، واللحى

Twitter: @ketab_n

لم تُحلَق منذ عدّة أيام والشعر غير ممشّط. كانوا حقيقيين أكثر مما هم في طبيعتهم.

فتحت الضابطة الباب. دخل فيرجيل. كان المكتب يتكوّن من طاولتين معدنيتين ذات خمس قوائم. يوجد على كلّ منهما حاسوبٌ ورزمة أوراق وبطاقات وصور وفنجان من القهوة يتصاعد منه البخار. كان الضوء الأخضر في قاعدة الكاميرا المثبّتة على السقف يدلّ على أنّها تسجّل. حدّدت له الضابطة كرسياً وشغّلت حاسوبها. كان فيرجيل يرتعش من البرد؛ تمنّى لو يقدّموا له فنجاناً من القهوة أو الشاي، أو أيّ مشروب ساخن. نقرت الضابطة على مفاتيح حاسوبها وتجاهلته.

قال فيرجيل:

- لا بدّ أن يكون هناك خطأٌ ما.

فكّر فيرجيل أن هذه الجملة قد تصلح لأن تكون شعاراً له. فقد انطبقت على العديد من المواقف التي تعرّض لها خلال أسبوعين. وربّما في كلّ حياته. سأل بصوتٍ أجشّ إن كان متّهَماً بشيءٍ ما. لم تُجب الضابطة الشابّة. ظنّ فيرجيل أنّها تطبّق عليه مناورات انعدام الأمان النفسي مثلما علّموه في مدرسة الشرطة. لم يعد هذا الأمر يُجدي معه الآن: لقد اعتاد على الشدّة بفعل الهزّات التي تعرّض لها وأصبح محصّناً ضدّ القلاقل.

قالت المرأة الشابّة دون أن تحيد بصرها عن شاشة حاسوبها:

- القوادة.

- هذا يؤكّد بأنّ هناك سوء تفاهم.

Twitter: @ketab_n

دخل رجلٌ يحمل قراب مسدّسٍ. بعد أن قبّل زميلته، وضع مجموعة من الصور أمام فيرجيل: كان فيرجيل يظهر في الصور وهو يتحدّث مع العاهرات أمام عمارته. في إحدى الصور، تُعطي فتاة لفيرجيل ورقة نقدية وفي أخرى يعطي فيرجيل واقيات ذكرية لشخصٍ متنكّر.

- أنا أقدّم لهنّ خدمات.

قالت الشرطية الشابّة:

- بالضبط، وهذه الخدمة التي تسديها لهنّ تسمى قوادة.

شرح فيرجيل بهدوء كلّ صورة من الصور المعروضة. كان يحصل له أن يتبضّع لجاراته، كان يشتري لهنّ واقيات ذكرية وكريمات مهدّئة ومسكّنات ألم. قدّمت له الضابطة ورقة مطبوعة، يظهر عليها رقم حسابٍ مصرفي.

- وكيف تفسّر وجود الأموال التي تمتلكها في المصرف؟

اطّلع فيرجيل على الوثيقة.

قال، مذهولاً:

- أفسّر ذلك بميلٍ نحو الادّخار.

أدرك أنّ كلّ شيء في حياته، كما في حياة أيٍّ كان، قد يُفسّر تفسيراً إجرامياً. كان سلوكه (موته المعلَن، فسخ عقدَي الكهرباء والهاتف، وكأنّه كان يتهيّأ للانتقال إلى النضال السرّي؛ فقدان شهيته للاستهلاك الأمر الذي يفسّر المبلغ الكبير من المال في حسابه المصرفي؛ دون الحديث عن مجموعته الضخمة من المجلات

Twitter: @ketab_n

الإباحية ومن صور آرميل العارية مختبئةً تحت سريره) يدعو على نحوٍ خاصّ إلى الشكّ والاشتباه به.

- أنت تعمل في الدعاية والإعلان؟

ردّ فيرجيل بالإيجاب. بطريقةٍ ما، كان يستحقّ التوقيف: فالدعاية هي أقدم مهنة في العالم والدعارة ليست إلاّ انحرافاً لها. لم يخطئ رجال الشرطة فعلاً بشأن حسابه. اكتشف فيرجيل، مندهشاً، بأنّه لم يكن مستاءً لتوقيفه. لقد تدخّلت الشرطة لكي تقول له بأنّ عليه أن يتغيّر.

لفت الشرطي انتباهه بأنّ استهلاك الكوكايين كان شائعاً في أوساطه. فردّ عليه فيرجيل بأنّ هذا «محتملٌ جداً». فهو لم يكن يهتمّ بما كان الآخرون يضعونه في مناخيرهم أو شرايينهم أو كبدهم. كانت هناك أماكن أخرى يركّز أبصاره عليها. ربّما كان بوسعه أن يصف النوافذ المزجّجة لبعض غرف عمارة سفينغالي والملصقات المعلّقة في الممرّ ومكتب سيمون.

- أتعتقدون بأنني أتاجر بالمخدرات لزملائي؟

- لقد عثرنا على الكوكايين في العديد من الشقق.

الكثير من العاهرات يتعاطين المخدرات لكي يتحمّلن. لم يستطع الشرطي تجاهل ذلك.

- إذاً، أنتم تعتبرونني تاجر مخدّرات وقوّاداً.

لم يستطع فيرجيل أن يمنع نفسه من الشعور بالإطراء لتخيّله في دور الرجل الواثق من نفسه والفحل. رجلٌ شرّير مغرٍ ومتوحّش لا يعرف الخوف ولا يتردّد أبداً في التصرّف.

Twitter: @ketab_n

- زيّك ليس مألوفاً.

ببزّته الباروكية ولحيته التي لم يحلقها منذ يومين، لا بدّ أنّه قد بدا في صورة القوّاد التي يرسمها شرطيٌّ شابّ من هواة السينما. لم يعد ينقصه سوى الجزمة الجلدية، والسلسلة الذهبية والنظارات الشمسية.

- حياتي غير مألوفة. إذاً، هذا أمرٌ طبيعي، أليس كذلك؟

في نهاية المطاف، كانت هذه الحادثة تتناسب تماماً مع الجنون الذي اجتاح حياته منذ رسالة كلارا الهاتفية. كان هناك منطقٌ ما. أراد فيرجيل أن يستسلم لرغبة عناصر الشرطة وأن ينقاد للقصّة التي تخيّلوها وأن يلعب دوراً فيها يختلف جذرياً عن طبيعته الحقيقية. لم يعد يشبه ذاك الشخص الذي كان الجميع يعتقدونه. كان ميّالاً إلى التخلّص من حياته الماضية.

قال:

- اسمعوا، قبل كلّ شيء أنا موافق على أن أكون القوّاد الذي تبحثون عنه. أنا مستعدّ لأن أعترف.

ربّما كانت هذه علامة قدرية، وسيلة لترك عمله في الوكالة ليبدأ في انطلاقةٍ جديدة. أن تبدأ هذه الانطلاقة الجديدة ببضعة أعوامٍ من السجن كان بالتأكيد مسألة سلبية، ولكن كان لا بدّ من قوّة جبّارة لانتزاعه من حياته المرتّبة للغاية. ثمّ أنّ السجن وسيلةٌ مناسبة لمن يريد أن يغيّر وجهته المهنية. سوف يتعلّم أساليب وطرائق الاحتيال، وينمّي عضلاته ويبني العلاقات مع الآخرين.

Twitter: @ketab_n

لا شكّ أنّ موقفه قد أربك عنصري الشرطة. نظرا إلى بعضهما. تخلّيا عن قناعهما الموحي بالامتعاض ليظهر شيءٌ من الإحباط وما يشبه الحزن.

قالت المرأة الشابّة:

- لا نعتقد أنّك مذنب. ولكنّك تتصرف بغرابة.

يبدو أنّ هذا ما كان يبرّر الاستجواب والتحقيق. لم يكن فيرجيل خبيراً (كان قد فضّل، في الكلية، دروس القانون الدستوري على دروس القانون الجنائي)، ولكنّه ظنّ، للحظة، أن الغرابة تُعتَبَر جُنحةً أو جريمة.

- ربّما لاحظتَ شيئاً ما في عمارتك. أنت تقيم فيها منذ سبعة أعوام. نحن نسعى إلى تفكيك شبكة.

كان فيرجيل قد عاشر العاهرات، وتحدّث إليهنّ ولكنّه لم يكن يهتمّ بشؤون عمارته. كان غارقاً في تأمّلاته إلى درجة انشغاله عن ملاحظة أيّ شيءٍ. لو أنّ جاراته جلبن غوّاصة نووية إلى العمارة، لما اكتشف ذلك. تأسّف لعدم قدرته على مساعدة هؤلاء الشرطيين الذين استيقظوا باكراً وشتموا وأهانوا وضربوا كثيراً أناساً في سبيل القضية النبيلة لتفكيك شبكة دعارة.

فجأةً، ومضت فكرةٌ في ذهنه وكأنّها وحي: ماذا لو أعطى اسم كلارا للشرطة؟ سيقول لهم بأنّه قد شاهدها تجول في العمارة وتتحدّث مع الفتيات وتقبض جزءاً من الأرباح. سوف يصفها على أنّها زعيمة الشبكة التي ترتدي الثياب السود؛ سوف يتحدّث عن بروز سلاحٍ تحت سترتها وعن نظرتها الحادّة. إنّ التحايل عليها سيكون

Twitter: @ketab_n

بمثابة وسيلة لتوازن علاقتهما. ألهته الفكرة ولكنّها بالتأكيد لم يكن من الممكن مواجهتها.

أخبرته الضابطة بأنّه سوف يبقى في الزنزانة لأربع وعشرين ساعة (القانون يسمح لهم بذلك، لا شكّ أنّ عدم الاستفادة من ذلك كان أمراً مؤسفاً)، وهي المدّة المطلوبة للتحقّق من مصدر المال المدَّخَر في حسابه المصرفي. من جهة أخرى، ربّما كان من المفيد أن يوافق على الخضوع لبعض التحاليل الطبية. وقّع فيرجيل على الورقة التي قُدِّمَت له وأخذ فنجان القهوة الذي كان على طاولة الضابطة. كان السائل ساخناً. أبقاه بين خدّيه وارتعش كلّ جسمه مسرّةً.

رافقه شرطيان إلى مخبر الطبّ الشرعي الذي يقع في الطابق السادس. كانت القاعة، المنارة بمصابيح النيون، تمتدّ على نحو خمسين متراً وكان سقفها منخفضاً جدّاً. وتزيد الجدران والأرضية البيضاء من سطوع الإنارة. كانت الحواسيب والمجاهر وأنابيب الاختبار موضوعة إلى جانب بعضها على طول الممرّات الثلاثة التي كان الأطبّاء والبيولوجيون يسيرون فيها.

اقترب طبيبٌ من فيرجيل. ثلاثة طلّاب كانوا يحيطون به وفي يده دفتر وقلمٌ مشهر. كان طلبة الطبّ يتبعون لدورة تدريبية. دون أن يعرّف نفسه بفيرجيل، شكّ الطبيب إبرة في وريد ذراعه وسحب منه كميّةً ليست بالقليلة من الدم. أعطى الطبيب عيّنة الدم لطالبةٍ. شعر فيرجيل بأنّه سوف يُغمى عليه؛ ندِم على أنّه لم يقرأ الورقة بانتباه قبل أن يَمضي على الموافقة على إجراء الفحوصات الطبّية. قصّ له

Twitter: @ketab_n

الطبيب ظُفراً فوق إناءٍ معدنيّ صغير. سارع الطلّاب الثلاثة إلى قصّ الأظافر المتبقية. قصّ الطبيب خصلةً من شعره باستخدامِ مبضعٍ؛ فشعر فيرجيل أنّ جزءاً من جمجمته أصبحت في الهواء الطلق. تقاسم الطلبة خصلة الشعر ووضعوا كلّ جزءٍ منها في جُريباتٍ بلاستيكية صغيرة. بينما كان الطبيب يكشط عوداً على جدران خدّه، أخذ الطلبة بصماته. وفي النهاية، طُلِب منه أن يتبوّل في كوبٍ زجاجي. وزّع الطبيب السائل الأصفر والساخن بين دوارق طلبته الثلاثة.

اقتاد شرطيٌّ فيرجيل إلى القبو. سلكا درجاً مقدوداً في الصخر؛ كانت الجدران ترشح بالرطوبة وأغلبية المصابيح محروقة. حرص فيرجيل على ألا يُخطئ درجةً. كان القسم الإصلاحي من مقرّ الشرطة القضائية يتكوّن من سلسلة من الزنازين في تقليدٍ حرفيٍّ لتصميم المعماري جون هافيلاند لسجن «إصلاحية الشرق» في فيلاديلفيا. أي أنّ عزلة السجين كانت تامّةً ومطلقةً. لم يكن من الممكن إجراء أيّ اتصالٍ كان مع المعتقلين الآخرين أو مع حرّاس الزنازين.

لم يكن هناك مقعدٌ في الزنزانة. القليل من الضوء كان يرشح من خلال فتحة للتنفّس. جلس فيرجيل على الأرضية الإسمنتية. رغم العتمة، امتلك فيرجيل، لأوّل مرّة، رؤية واضحة عن حياته، عمّا يرغب أن يكون عليه وعمّا يريد أن يُنجزه.

Twitter: @ketab_n

في الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي، استقبلت آرميل فيرجيل أمام بوابة الخروج من مقرّ الشرطة القضائية. قطعت عطلتها في نهاية الأسبوع في ستراسبورغ وجاءت تبحث عنه. بعد يومٍ وليلة في السجن، كانت ألبسة فيرجيل قد التصقت بجلده وأصبحت تفوح منها رائحة العفن والبول. أبهره الضوء فقطّب عينيه. استقلا سيارة أجرة. في الطريق، شرح فيرجيل سبب توقيفه؛ فانطلقت آرميل في قهقهة جنونية.

كانت قد أعدّت غرفة الأصدقاء. استحمّ فيرجيل، وانتهت ثيابه في الغسّالة. أعطته آرميل سروالاً رياضياً قديماً وبلوزةً سوداء اللون ذات قبّعة وزوجاً من الجوارب قرمزية اللون مصنوعة من الكشمير.

تناول فيرجل الفطور في الصالون. كانت آرميل قد اشترت فطائر البريوش. جاء الشاي الصيني من ماركة لونغ جينغ الممتازة من صالة الشاي مارياج فرير. قدّمت له آرميل علبة بيرة من ماركة بيرويكي، (هديّة من آن-إليزابيت) وحدّثته عن عطلتها في نهاية الأسبوع.

في الساعة التاسعة، تركته لوحده. بدأ دوامها في العمل.

شعر فيرجل بأنّه قد تحرّر ولكن لم يكن لذلك الشعور أيّ علاقة

Twitter: @ketab_n

بخروجه من الزنزانة. أكل بعض الحلوى بالفاكهة المجفّفة وتجوّل في الشقّة وأمضى بعض الوقت واقفاً أمام المكتبة التي كانت شبه خالية وتصفّح كتاباً عن عالم النبات ودليلاً خاصّاً بمعرض الرسّام الياباني هوكوساي. واتّخذ حينها قراراً هامّاً: سوف يدسّ نسخته من كتاب «التأمّلات» للإمبراطور الروماني ماركوس أوريليوس في مكتبة آرميل. كان الوقت قد حان للتخلّص من تلك العقبة. ففي نهاية المطاف هو ليس إمبراطوراً رومانياً، وجعله لهذا الكتاب توراةً له هو أمرٌ مبالغٌ فيه.

استلقى على الأريكة ثمّ على سريره وأخيراً على سرير آرميل. أمسك بالصورة الموضوعة على طاولة السرير. كانت صورة آن-إليزابيت. قرّب الصورة من فمه ونفخ عليها بلطف. اختفت ملامح الصورة تحت البخار. مسح سطح الزجاج بكمّ قميصه وظهر من جديد وجه آن-إليزابيت. كان الخلود إلى الراحة في شقّة تتوفّر فيها الكهرباء والتدفئة سعادةً حقيقية. ثمّ كانت هناك علامات على أنّ أحداً يعيش هنا: كانت هناك نباتات زينة وثلاّجة مليئة.

فتح النافذة المطلّة على قناة سان-مارتان. كان الحيّ مناسباً لحياة هادئة: الماء والسيارات القليلة والمقاهي. كان مكاناً مناسباً للتأمّل. وهكذا بدأ بالتفكير في وضعه المهني.

راود مرجعٌ ذهنه. كانت أنتيغون تعارض كريون الذي كان يمنعها من إعطاء مدفنٍ لشقيقها. والنتيجة كانت أن سُجِنَت وماتت، وحيدةً. تعلّمنا الأساطير والحكايات والآداب والفنون عموماً بأنّ للتمرّد ثمنٌ ينبغي دفعه.

Twitter: @ketab_n

كان القبول باقتراح وكالة سفينغالي سيجنّب فيرجيل الدخول في نزاعٍ، وكان سيحافظ على تجانس الاتّزان في عالمه وعلى راحة الضمير في حياته. الكائن البشري يُطيع كي لا يموت. هذه هي نظرية الولد الوديع: إذا كنتَ عاقلاً، سوف تحصل على درجات عالية ومهنة ومنزل وزوجة وسوف لن تموت لا أنت ولا أحد من الذين تحبّهم. وينتهي الأمر باكتشاف أنّ هذا أمرٌ تافه ولكنّه يسري كثيراً ولزمنٍ طويل.

سوف لن يستقيل. ليس في الحال. سوف يذهب في الحال لمقابلة سيمون ويوافق على الترقية الوظيفية والزيادة في الراتب. لبعض الوقت، سوف يلتزم بالمخططات التي أُعدّت له ولكنّه سوف يُعدّ في السرّ مخرجاً لهذا المأزق. لم يكن لديه ما يكفي من الثقة بنفسه وبهذا العالم لكي يخوض المغامرة من دون شبكة أمان. إنّ المجازفة هي موهبة الذين ترعرعوا وسط الرفاهية؛ فهذا العالم خُلِق لهم، يعرفون لا شعورياً بأنّهم سوف يجدون لهم مكاناً فيه. لم يراود فيرجيل أبداً هذا الشعور بالثقة. سوف لن يتغيّر هذا الأمر. على الفقراء والضعفاء والحسّاسين والمنفيين أن يكونوا صموتين وماكرين محتالين.

نظر فيرجيل إلى المارّة. قبل بضعة آلافٍ من السنين، في العصر البليوسيني، لا شكّ أنّ فيلةٌ كانت ترعى هنا، تغطّ خراطيمها في الماء وترشّ جسمها به وتغسل صغارها؛ وتسرح وتمرح في مجموعات. تصوّر فيرجيل أنّ الإنسان كان فيلاً رشيقاً ومشيقاً. تتنزّه الفيلة البشرية يداً في يد، وتمارس التزلّج بالعجلات وتجري على الرصيف.

Twitter: @ketab_n

اكتأب فيرجيل لأنّه كان يعرف مصير الفيلة. لقد تمّ تدجينها لكي تُستخدم كآلات وأجهزة مساعدة، كسلاح، كوسائل نقل، بل جرى قتلها وإبادتها لسرقة أنيابها العاجية. تساءل ماذا كان عاج البشر، ماذا كان كنز طبيعتهم لتبرير إبادتهم؟

في العصور الغابرة، كادت الفيلة أن تنقرض. العديد من الأجناس انقرضت (من بينها الفيل الأطلسي والفيل السوري، إضافة إلى أنواع أخرى). ولم تأمن الأجناس الأخرى سلامتها إلّا من خلال قدرتها على إغراء جمهور الحلبات الذي فضّل رؤيتها تؤدّي أدواراً يواجهها مصارعون. أثارت الفيلة شفقة البشر وسلّتهم فنجت من الانقراض.

في الحلبة التي كان يتواجد فيها، كان فيرجيل يعلم بأنّه قادرٌ على التسلية وإثارة الشفقة.

Twitter: @ketab_n

كان شارع فوبورغ - سان-مارتان هادئاً؛ وضوء المصابيح يزيل عتمة الأرصفة والعائلات تتهيّأ لتقاسم عشاء مساء الأحد. دلفت شاحنة حاوية القمامة إلى الشارع محدثةً صريراً.

دقّ فيرجيل باب شقّة شقيق كلارا. فتح كانتان الباب وفي يده ملعقة طبخ. فاحت رائحة بصلٍ وزيت زيتونٍ في الجوّ؛ وجاء صوت القلي من المطبخ. عرّف فيرجيل نفسه: قال بأنّه صديقٌ قديم لكلارا وقد جاء يحمل إليها بعض الأغراض؛ وأشار بذقنه إلى العلبة الكرتونية (الفارغة) تحت ذراعه. خفق قلبه كما لم يخفق من قبل. سوف يلعب دور زميلٍ قديمٍ لكلارا، بينما يجهل عنها كلّ شيء. كانت تلك مجازفة كبيرة. دعاه كانتان إلى الدخول.

على الرغم من النافذة المفتوحة، ظلّت روائح الطعام تفرض نفسها في الهواء وعلى الألبسة المعلّقة على المشجب. اصطحبه فيرجيل إلى المطبخ.

كانت الشقّة متواضعة، جدرانها رمادية، ومصابيحها عادية. كان الصالون يضمّ أريكة تُستخدم سريراً أيضاً وأكداساً من الكتب والأسطوانات. بدا أنّ المطبخ هي الغرفة الأكثر أهمية والأكثر

Twitter: @ketab_n

تجهيزاً: كان مجهّزاً بسكاكين ومقالٍ وطناجر؛ وكان هناك أيضاً بهارات وتوابل وسلّة للفاكهة والخضار الطازجة واللمّاعة ومرطبانات تحتوي على لوز ولبّ جوز وصنوبر وأنواع مختلفة من الفاكهة المجفّفة والرفوف مليئة بالمواد الغذائية ذات الجودة العالية وقوارير لأنواعٍ عديدة من الزيوت مصفوفة فوق الثلاجة. وقد دهّنت المواد الدسمة الجدران والسقف فوق الطبّاخ الذي يعمل على الغاز.

قال كانتان وهو يحرّك البصل في المقلاة:

- أنت صديقٌ قديم لكلارا، إذن.

هزّ فيرجيل رأسه. لاحظ وجود الكثير من سجائر الماريجوانا في مرطبان على الثلاّجة.

قال كانتان:

- سوف تأتي لتناول العشاء هذا المساء. يُفتَرض بها أن تصل بعد أقلّ من ساعة. لا أدري إلي أين وصلت ولكن أهلاً وسهلاً بك. ستحضر مود أيضاً.

كان حضور مود وكلارا المتزامن يبشّر بمشهدٍ مثير. ستروي مود حديثها مع فيرجيل. وسوف تطرح أسئلة حول علاقتهما. وسوف تُفاجأ كلارا.

- هذا لطفٌ منك، ولكنني لا أعتقد أنّ هذه ستكون فكرة حسنة.

لكونه لم يرغب في الاستفاضة حول الموضوع - كان هناك خطرٌ كبير أن يكتشف كانتان كذبته - سارع فيرجيل إلى تغيير موضوع الحديث.

Twitter: @ketab_n

- لقد قرأتُ كتب الأطفال التي كتبتَها. وقد أعجبتُ بها كثيراً.

كان فيرجيل صادقاً في ذلك، فقد أحبّ فعلاً تلك الكتب الغريبة.

قال كانتان:

- لقد تسبّبوا لي بالإحباط.

قشّر ثوماً وأخرج اللبّ من الجريبات.

سأل فيرجيل:

- الأطفال؟

- لا نعرف أبداً ماذا يريدون، يتحرّكون في كلّ الجهات ويطالبون باستمرار بالاهتمام بهم.

أمسك كانتان بسكينٍ وبلوحٍ خشبي وبدأ يفرم الثوم. حينما نظر فيرجيل إلى المواد الموجودة على طاولة التحضير ومقاديرها أدرك أنّ مضيّفه كان يعدّ طبقاً من اللازانيا. فتح فيرجيل علبة من البندورة المقشّرة. بإشارةٍ من رأسه، أظهر له كانتان بأنّه ارتاح لمبادرته وأعطاه طنجرةً. سكب فيرجيل البندورة في الطنجرة. كان يحبّ ذاك الطبق الذي يثير ذهنه مثلما يثير شهيّته: فقد كانت اللازانيا نتيجة مؤامرة عالمية. لقد اختُرِعَت المعجنات في الصين وتأتي البندورة من أميركا والبصل من غرب أفريقيا والثوم من مصر (كان العمّال الذين بنوا أهرامات الجيزة يستهلكون كميات هائلة منه). شكر فيرجيل في قرارة نفسه كانتان على تكفّله بالحديث ودفعه بهذا الاتجاه المُرضي. شعر بأنّه ملفوفٌ بغطاء وأحسّ بالدفء.

سأل فيرجيل:

Twitter: @ketab_n

- أنت لا تحبّ الأطفال، إذن؟

- أجل. أنا لا أحبّ أطفال الآخرين. أنا لا أحبّ الناس. ولا أرى سبباً لكي أحبّ أطفالهم.

- هذا أمرٌ منطقي.

ذكّر تراكم واختلاط روائح الخضار النيئة والمطبوخة واللحم والأعشاب فيرجيل بوالديه وبالسعادة التي كانت تغمره حينما يراهما يعدّان الطعام لفريق السيرك والأحاديث التي كانت تضفي حيوية على الوجبات. رغب في أن يلتقي بهما. تمنّى لو استقلّ غداً بعد انتهاء دوامه في الوكالة قطاراً لوصل بعد الانتهاء من العشاء المقدّم تحت خيمة السيرك واستُقْبِل بالصيحات وارتمى عليه أصدقاء والديه ورفعوه عن الأرض ونبحت الكلاب وتمسّحت بساقيه؛ ولكانت القهوة ساخنة وثقيلة للغاية.

واصل كانتان حديثه:

- حتى حينما كنتُ طفلاً، لم أكن أحبّ الأطفال. لم أغيّر رأيي في هذه المسألة. هناك شيءٌ من الفاشية في هذا الإلزام بعبادة الأطفال. أحبّ بعض الأطفال ولكنني ببساطة لا أستطيع أن أخالط معظمهم.

أُعجِبَ فيرجيل باللعبة التي لعبها كانتان. كان أشبه بمشاهدٍ يحضر حفلة لموسيقى البلوز.

- لطالما اعتبرتُ أنّ الأطفال لا يستأهلون أن يكونوا أطفالاً. كان البالغون ليستمتعوا بالطفولة أفضل من الأطفال بكثير. الأطفال جدّيون للغاية، طافحون باليقينيات: ربّما كانوا بالغين صالحين جداً.

Twitter: @ketab_n

ابتسم له فيرجيل. فكّر في الأطفال. كان يتأسّف كثيراً عليهم لكونهم ضعفاء للغاية وتابعين للغاية وتقلقه خطورتهم، كشعورهم بالمسؤولية تجاه عائلتهم والعالم، وتيرة تصرّفاتهم الانتحارية حينما يجتازون الشارع دون التفات أو يبتلعون أشياءً. ولكنّه كان معجباً بحماستهم وفضولهم.

كانت المواد الداخلة في طبق اللازانيا دسمة جداً. طرّى كانتان المكوّنات بزيت الزيتون قبل أن يضيفها إلى الحشوة. نثر فيرجيل اللحم المفروم في المقلاة. ثارت شهيّته.

- نقلت كلارا مسكنها، إذن.

أخفض فيرجيل رأسه وركّز على اللحم لإخفاء تعابير وجهه وابتسامته كممثّلٍ فاشل.

قال كانتان:

- نعم، إنّها تقيم في شارع كي دورليان المطلّ على نهر السين، في جزيرة سان-لويس.

- حقّاً؟

- أمرٌ غريب، أليس كذلك؟ إنّها تقيم دائماً في أماكن غير متوقّعة. لديها هناك حصن بيرير. أنا أفهم رغبتها.

- هل منزلها واسع هناك؟

- بل ضيّقٌ للغاية. بالكاد تستطيع الاستدارة فيه، لكنّ الإطلالة على نهر السين رائعة.

فكّر فيرجيل أنّ هذا يعني بأنّها تعيش وحيدةً في البيت.

Twitter: @ketab_n

- طبعاً، لم تستطع أن تأخذ كلّ أغراضها معها إلى هناك. تركت معظم أغراضها في منزلي وفي منزل والدينا.

أخيراً توصّل فيرجيل إلى بعض المعلومات عن كلارا. شعر بأنّه لصّ ومتلصّص. شعر بأنّه يرتكب انتهاكاً للحرمات. وهذا ما عكّر مزاجه. وفضّل أن لا يسعى إلى معرفة المزيد. الآن وقد بات باستطاعته أن يلتقي أخيراً مع كلارا، كان يكفيه الانتظار هنا، سوف تصل خلال أكثر من نصف ساعة بقليل، أدرك عبثية الموقف. لم يشأ أن يطلب منها حساباً. لم يشأ أن يفاجئها بوجوده ويبرهن على مدى خبثه وعلى أنّه قد أخذ بثأره وخرج منتصراً من هذه الحكاية. لم يشأ أن يحقّق ذاك الانتصار الغبي الذي ينطبق عليه المثل القائل «من حفر حفرة لأخيه، وقع فيها». الآن وقد عثر عليها، كان الشيء الوحيد الذي ينبغي القيام به هو الاختفاء من حياتها. لم يكن قط جزءاً من حياتها تلك.

ثمّ حان دور كانتان لكي يركّز أبصاره على اللازانيا. أراد أن يطرح سؤالاً، ولكنّه خشي من أن يبدو أخرقَ. سكب اللحم في قِدرٍ. فرقع اللحم وتصاعد منه البخار. وضع كانتان ملعقة الطبخ من يده وأشعل سيجارة ماريجوانا. عرضها على فيرجيل ولكنّ هذا الأخير رفض العرض.

قال كانتان وهو ينفث الدخان:

- لماذا هجرتْكَ؟ هي لم تحدّثني عن هذا الأمر. حتى أنني لم أكن أعلم بأنّكما كنتما معاً.

اعتصر السؤال قلب فيرجيل. لم يفكّر قبل أن يجيب. لم يكن

Twitter: @ketab_n

قط على هذه الدرجة من الصدق. دمعت عيناه؛ لم تكن أبخرة الطهي من دون فائدة.

- لقد أسأتُ التصرّف حيالها وحيال نفسي.

- لم أراكما قط معاً. ولكنني أعرفها وها قد اكتشفتك هنا، هذا المساء، ويبدو لي أنّكما حتماً ستكونان ناجحين معاً.

كانت تلك كلمات صديقٍ في المطبخ. نرغب دائماً في أن يكون الذين نتقاسم معهم تجربة حميمية مثل إعداد طبقٍ من الطعام قريبين منّا. اختلط أريج الماريجوانا مع روائح اللازانيا التي كانت قيد الاستواء. تناول فيرجيل كأس النبيذ الذي قدّمه له كانتان.

قال فيرجيل:

- أودّ أن أبدأ من الصفر. أن أتصرّف كما لو لم نكن معاً من قبل.

- هذا صعب.

لا بدّ أن كانتان قد فكّر في قسطه من الإخفاقات العاطفية.

- أعلم ذلك. ولكننا نستطيع أن نجعل الأمر مصادفةً.

تخيّل بأنّهما سوف يلتقيان مصادفةً. سوف يشاهدان فيلماً للمخرج أرنست لوبيتش في الحيّ اللاتيني ويتبادلان الروايات ويتنزّهان في حديقة مونسوري ويشربان القهوة في مقهى ليسكاليه كاجون ويتناولان العشاء في مطعم غلادين في حيّ بوتو كاي، ثمّ يذهبان إلى المعرض الكبير للتطوّر في حديقة النباتات، لكنّ السؤال كان هو معرفة كيفية التصرّف ليحصل اللقاء مصادفةً. وجد فيرجيل

Twitter: @ketab_n

طريقةً. كان يعرفها. ما لم تتكفّل كلارا نفسها بذلك. أنهى كأسه من النبيذ.

- لقد غيّرتُ رقم هاتفي النقّال. لو تفضّلت بإعطائه لها.

قال فيرجيل ذلك وهو يمدّ قصاصة ورقية نحوه.

ردّ كانتان:

- طبعاً.

أخذ كانتان القصاصة ووضعها في مرطبانٍ زجاجيّ كان يحفظ فيه نقوده. رافق فيرجيل إلى الباب وصافحه مطوّلاً كما لو أنّه ينقل احتياطيات الطاقة والحرارة.

Twitter: @ketab_n

حالما غادر شقّة كانتان، ورغم التعب والجوع، استبدّت بفيرجيل رغبة في التنزّه تحت ضوء القمر على ضفاف نهر السين. صعد سفينة للسياحة المائية قرب جسر سان-ميشيل. كانت المياه والسماء تتقاسمان السحنة الكالحة نفسها. كان الخطّ الرفيع للحضارة بمبانيه وسكّانه محصوراً بين هاتين الفجوتين.

حلّ البرد. فأخرج الناس أوشحة وطاقيات. بدت الأوراق الحُمر للأشجار وكأنّها حلويات بشراب القيقب. كان فيرجيل جالساً إلى جانب مجموعة من السوّاح على سطح السفينة. يمسك بين يديه بمخروطٍ ورقي مليءٍ بالكستناء الساخنة ويرمي بالقشور في النهر.

وضع زوجان صينيان مسنّان آلة تصويرٍ بين يديه ليلتقط لهما صورة تذكارية. أرادا أن يخلّد فيرجيل تلك اللحظة من حياتهما. جلس الرجل والمرأة على حرف السفينة لتكون كنيسة نوتردام خلفية لصورتهما. ضغط فيرجيل على زرّ الكاميرا. أضاءت الومضة بقعة صغيرة من عتمة الليل للحظة. تجاوزت سفينة السياحة المائية جزيرة المدينة وتوجّهت نحو جزيرة سان-لويس. انبهر السوّاح أمام جمال المدينة.

Twitter: @ketab_n

لزمنٍ طويلٍ، اعتقد فيرجيل أنّ الرجال والنساء يواجهون ثلاثة أنواع من سوء الفهم: اللقاء، العلاقة، الانفصال. نلتقي ونحبّ بعضنا وننفصل لأسبابٍ نجهلها. لا يستطيع أيّ ثنائي التحرّر من هذا الانحراف في سوء التفاهم. كانت هذه إحدى خطبه الروحية خلال حفلات العشاء والأعياد. ولكن خلف هذه النكتة كان ينبثق يقينه في أنّ الحبّ لا يدوم. وككلّ الناس، كان متشبثاً بيقينياته. كان فقدانها يعني أن يكسر ساعده ليمنحه كوعاً إضافياً.

كان تخلّي فيرجيل عن رؤيته التشاؤمية تشكّل خطراً داهماً أعظم بكثير وأكثر إيلاماً من نهاية كلّ واحدة من قصصه الغرامية.

لم تكن لديه وقائع ولا أدلّة لكي يستند إليها سوى تطوافه الداخلي منذ عشرة أيام، ولكنّه بالتأكيد لم يكن قد احتفظ بأيّ ذكرى عن كلارا لأنّها كانت تمثّل حداثةً تعارض معتقداته وربّما يكون قد أحبّها.

مرّت سفينة السياحة النهرية من تحت جسر سان-لويس. صمت السوّاح. حينما عادت السفينة من جديد إلى ضوء القمر، والأنوار المتناثرة على المباني، صرخ السوّاح ابتهاجاً. تجاوزت السفينة جزيرة سان-لويس. قشّر فيرجيل حبّة كستناء وقضمها.

ليست هناك سوى وسيلة وحيدة لكي لا نجازف أبداً بخسارة الذين قد نحبّهم. وهو ألا ندعهم يدخلون إلى حياتنا.

Twitter: @ketab_n

كانت مصابيح الطرقات لجادة ماجانتا مخفية جزئياً بفعل الأشجار؛ كان ضوء المصابيح ينعكس على الأغصان وينبعث نحو السماء. سار فيرجيل على آخر أوراق الخريف. آوى الليل الرجال والنساء والأطفال؛ أوقف السيارات وأسدل الستائر الحديد للمخازن والمتاجر.

رغِبَ فيرجيل في أن يلتقي مع كلارا لكي يتعرّف على امرأةٍ كانت لديها فكرةٌ استثنائية وشاعرية. لم يكن يحبّها، بل لم يكن يرغب في أن يحبّها. لم يكن الوقت قد حان لذلك. ببساطة، كان الجنون العذب لمسيرته يروق له وكان ذلك يكفيه إلى هذه اللحظة. ربّما كانت هذه مزحةٌ؛ ربّما كانت قد أُغريَت وأرادت بهذه الطريقة السوريالية أن تجذب انتباهه. في النهاية، لم يكن الأمر ذي أهمية كبيرة. قد يلتقيا ذات يوم، بمصادفةٍ مدبّرة، ويتعارفا في النهاية.

كلّما ذهبنا بعيداً في ماضي الكون، كلّما أصبح الثقل النوعي ودرجة الحرارة أكثر تطرّفاً. هناك لحظة تُسمى زمن بلانك، لا تسمح معارفنا الفيزيائية بقياس ما هو أقصر منها إذ لا يوجد معنى للزمن حينما يكون أقصر من هذه اللحظة. خلال كلّ الأزمنة الأولى لتاريخ

Twitter: @ketab_n

الكون، لا يوجد مكانٌ وزمان؛ فلا تتطابق الجاذبية والنسبية. كان اللقاء مع كلارا جزءاً من تلك اللحظات الحاسمة والمجهولة.

منذ تلك اللحظة، شهدت حياة فيرجيل تقلّبات جديرة بولادة عالمٍ جديد، حدثت فيها انفجارات وصدامات وتشكّلت نجوم.

بفضلها، عرف فيرجيل أمراً كان إلى ذلك الحين يجهله: كان بوسعه أن يعيش. اكتشف بأنّه قادرٌ على أن يتصرّف وأن يتغيّر وكان قد تخلّى عن مفاهيم مرضية وعفى عليها الزمن. الآن، حتى وإن كانت حواسه تخبره بأنّ الأرض مسطّحة وثابتة وأنّها لا تدور حول نفسها ولا حول الشمس، كان يُدرك أنّ السماء ليست هي الحدّ، وأنّ هناك ما هو لانهائيّ وأنّ تصوّرنا عن الواقع يُعطينا في معظم الأحيان فكرةً خاطئة عن ذلك. من الناحية الإنسانية - هذا يصلح للنوع الثانويّ من الحبّ-، يمكننا طرح مسلّمة بديهية: ما تعتقدون أنّه موجودٌ ليس موجوداً، لا تثقوا بالمظاهر، لا تتقيّدوا بالاتفاقيات.

بوضعها نهاية لعلاقة لم تحدث قطّ، منحته كلارا هديّة لا تُقدّر بثمن: حكايةً.

على مرّ هذين الأسبوعين من المغامرة، استعاد طعم الخيال والحرية اللذين أتاحتهما. سوف تبقى اللحظة الغائبة للقائهما حاضرة على الدوام في داخله كعضوٍ سرّي لم يرد ذكره في أيّ كتابٍ لعلم التشريح، ولكن لا يمكن للقلب أن ينبض من دونه.

تنشّق فيرجيل الهواء المنعش لليل تشرين الأول/ أكتوبر الذي لم يعرفه قط بهذا القدر من الكثافة. كان نابضاً بالحياة.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

كلمات شكر

أشكر أليكس ولوران.

لقد علمتُ بوفاة جان - بيير فيرنان أثناء كتابة هذه الرواية. أستغلّ هذه السطور لكي أقول كم كنتُ أقدّر هذا الإنسان العلاّمة والأنثروبولوجي المكافح. كان نموذجاً وقدوةً لكلّ شخصٍ مولَعٍ بالأدب الإغريقي القديم، بالقصص التي اختلقها البشر ورووها لبعضهم وبالنضال السياسي. أهدي هذا الكتاب إليه. قلّما يُحيّي الكاتب الخيالي، الطالب الهاوي الجائع والسعيد والأبدي، معلميه غير المرئيين، أساتذته من دون علمه الذين يساهمون، في ضوء النهار، في إثراء خياله والتعبير عن هواجسه. أودّ أن أغطّي صفحات عديدة باسم هؤلاء، المألوفين جدّاً على نحو غريب، الذين أودّ أن أعبّر لهم عن امتناني وعرفاني بجميلهم. في الحالة الراهنة، أحرص على نحوٍ خاصّ أن أشكر بيير هادوت على كتبه.

أشكرُ على نحوٍ خاصّ آماليا تارالو على لطفها واستقبالها لي في ساوباولو.

Twitter: @ketab_n

مارتن باج

قد تكون قصّة حب

«فيرجيل. أنا كلارا. أنا آسفة، ولكنني أفضّل أن نتوقّف هنا. سأهجرك يا فيرجيل. سأهجرك».

لدى عودته إلى بيته بعد يوم من العمل، وجد فيرجيل على المجيب الآلي لهاتفه هذه الرسالة المحيّرة: تُبلغه كلارا بأنّها ستهجره. كان فيرجيل معتاداً على أن تهجره النساء، ولكن لم تكن لديه أيّ ذكرى عن هذه المرأة التي تُدعى كلارا. تفاجأ وتساءل إن لم يكن مريضاً مرضاً خطيراً أو مصاباً بداء النسيان، أسرع إلى طبيبته النفسانية، طلب المشورة من صديقته آرميل... ولكن لكونه لم يجد تفسيراً مقنعاً، انتهى فيرجيل إلى اتّخاذ قرارٍ غير متوقّع: أن يستعيد هذه المرأة التي لا يعرفها...

سوف يقلب هذا الحدث العبثي كلّ شيء في الحياة المنظّمة لهذا الشاب الذي كان يسعى إلى حياةٍ طبيعية، خالية من المفاجآت، يتحكّم بها مخافة التعرّض للمخاطر. إلى أن وصلته رسالة كلارا، هذا الانفصال الوهمي الذي منحه الفرصة لكي يعيد حساباته في الحياة، ويُخضِع نفسه للسؤال، ليصبح أقرب إلى وجوده ويكون ما قد يكون...

قد تكون قصّة حب هي كوميديا رومانسية يُبرهن فيها مارتن باج عن موهبة نادرة في الدعابة والسخرية، لكنها ليست رواية مضحكة فحسب، بل هي عميقة وممتعة تطرح التأمّلَ في الحبّ والصداقة والالتزام الغرامي ومصادفات الحياة وصعوبة الكينونة والعزلة... إنّها مفاجأة جميلة.

ISBN 978-9953-68-728-5

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب. 113/5158
markaz.casablanca@gmail.com
cca_casa_bey@yahoo.com